د. سناء شعلان

قافلة العطش

الوراق للنشر والتوزيع

أمانة عمان

دعم أمانة عمان الكبرى

قافلة العطش

((مجموعة قصصيّة))

سناء شعلان

الطبعة الأولى

٢٠٠٦

الوراق
للنشر والتوزيع

٨١٣,٩

شعلان، سناء كامل
قافلة العطش /سناء كامل شعلان._عمان:مؤسسة الوراق ،٢٠٠٦
(...) ص
ر . أ. : (٢٠٠٦/٧/٢٠٣٧)
الواصفات :/ القصص العربية/

* تم أعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

حقوق النشر محفوظة للناشر

جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إدخاله على الكمبيوتر أو ترجمته على اسطوانات ضوئية إلا بموافقة الناشر والمؤلف خطياً

مؤسسة الوراق للنشر والتوزيع
ص . ب ١٥٢٧ عمان ١١٩٥٣ الأردن / تلفاكس ٥٣٣٧٧٩٨
البريد الإلكتروني E– mail : halwaraq @ hot mail . com
www.alwaraq-pub.com
info@alwaraq-pub.com

"كم هم عطشى ...

أولئك الذين لا

يعرفون أنهّم عطشى "

سناء

الفِهْرست

الموضوع	الصفحة
١- قافلة العطش	٩
٢- النّافذة العاشقة	١٥
٣- رسالة إلى الإله	٢٠
٤- الفزّاعة	٢٥
٥- سبيل الحوريّات	٣١
٦- تيتا	٣٧
٧- الرّصد	٤٤
٨- امرأة استثنائيّة	٤٩
٩- قطار منتصف اللّيل	٥٤
١٠- تحقيق صحفي	٦٢
١١- قلب لكلّ الأجساد	٧٤
١٢- احكِ لي حكاية	٧٩
١٣- بئر الأرواح	٨٦
١٤- قطته العاشقة	٩٤
١٥- زاجر المطر	١٠٤
١٦- الجسد	١٢٠

قافلة العطش

كانوا قافلة قد لوّحتها الشّمس، وأضنتها المهمّة، واستفزّها العطش، جاءوا يدثّرون الرّمال وحكاياها التي لا تنتهي بعباءات سوداء تشبه أحقادهم وغضبهم وشكوكهم. تقدّم كبيرهم، كان طليعتهم بالسّن وبالكلمة وبالغضب، عيناه كانتا النّاجي الوحيد من لثامه، حملتا كلماته إلى البدوي الأسمر الممترع بشبابه الأخّاذ، قال بنبرة بها مزيج غريب من الرّجاء والأنفة: "لقد جئنا بالمال".

غارتْ الكلمات في محجري الشّاب الذي اختنق بشكوكه ،وقال: "أيّ مال؟"

قال العجوز الملثّم بالخزي: "جئنا نفتدي بمالنا نساءنا اللّواتي أسرتموهنّ في غارتكم على مضاربنا".

تنهّد البدوي الأسمر، وتمطّى في مكانه، وقال بانكسار مهزوم لا يليق بصنديد قبيلة قهرتْ الصحراء، وفتكتْ بالذّراري، وسبتْ النّساء، وحملتْ رمال الصحراء صورته وصوته وصولته: "أما هناك بدّ من ذلك؟"

شعر العجوز الملثّم بأنّ كرامته قد أُهدرتْ من جديد، قـــال لـــه بصوت صدئ متقزّز: "أو هناك بدٌّ من صون الأعراض، وجمع الشتات، وفكّ الأسيرات؟"

أومأ البدوي الأسمر برأسه كأنّه يصادق بصمته على ما يسمع، لكنّه كان حقيقة يختنق بعطشٍ غريب يسلق حلقه المأزوم بكلماته التّي تأبى أن تعبّر عن مكنون عواطفه، في لحظة واحدة ثارتْ في عينيه رمال الصّحراء، ملأتْ الأرض ظلاماً أصـــفر، وجثمتْ بوطأتها على قلبه الصّحراوي الغارق في العطش .

كان عظيم قومه، ونسيب المناذرة، وسليل الأشراف عندما أغار على قبيلتها، واقتادها أسيرةً فيمن اقتاد، كانت جميلة،أجمل من القهوة، لها صهيل مثير، غضبها وحنقها أجمل ما فيها، من يعشق الخيل العربيّة الأصيلة لا يملك إلا أن يعشقها، لم تكن أسيرة السّلاسل التّي كُبّلت بها، بل كانت السلاسل أسيرة جموحها ورفضها، أرادها منذ أن رآها، كان عليه أن يفتضّ جمال الواحات، وأن يدرك أرض السّراب قبل أن يفترشها، ولذلك أحبّها، أحبّها خيلاً بريّة لا تُدرك.

"وها قد جاء والدها ليفتديها مع نساء قومها، أيستبدل بها المال؟ أهو موعد الفراق؟ وفراق الصّحراء فراقٌ جافٌ عقيم لا لقاء بعده، يا للصّحراء كم ابتلعت من حكايا! لكن أنّى لها أن تبتلع من يحبّ مقابل حفنة من المال، إن أرادتْ أن تصهل من جديد فلها ذلك، قد يكون في إطلاق العنان لها عزاء له." حدّث البدوي الشاب نفسه المثقلة بمخاوفها.

لقد أكرم قومها لأجلها، أمر بأن يقدّم الماء والغذاء للقافلة التي جاءت تستردّ مهره القمري، رفض المال، ورفض الفداء، بل أنعم على كلّ النّساء بالحريّة، وخيّرهنّ بين البقاء أو الرحيل مع أبناء عشيرتهنّ، فاخترن كلهنّ الرّحيل. سمع خيار كلّ واحدة من فمها إلاّ من أسرته، فإنّها صمتت طويلاً، استدارتْ الابتسامة على فمها القرمزي ثم اختفت بمرارة، وجفلتْ كمهر مكلوم، وانطلقت نحو رحال قومها، كانت القافلة تنتظرها لتحزمها مع ما حزمتْ، ولتقفل راجعة إلى المجهول، تأمّل جسدها السّابح في ثيابها الفضفاضة، اضطربتْ أصابع يديه عندما تخيّلها تسرح في شعرها ،الذي تداعبه الرّيح بلا خجل، صوت خلخالها وخرزها الصّدفي ، الذي تتزيّن به أحدث بعزفه

الحزين زلزالاً في نفسه ، التي امتدّت لتحتضن الصّحراء كلّهـــا لتحضنها هي بالذّات .

في لحظة اختفتْ من عينيه القافلة والصّحاري والرّجال ونساء الدّنيا، وبقي هو وإيّاها وصهيلها وآلاف الواحات . . . سمع لها حمحمة مهرة تُكبّل بعد حريّة . اقترب منها، نظر في واحات عينيها، قال لها بانكسار بركان، وبخجل طفل: "وأنتِ من ستختارين؟"
كانت على وشك أن تعتلي هودجها، بقبضته القويّة منعهـــا مـــن إكمال صعودها، وقال بمزيد من الانكسار: "من ستختارين؟"
نظرت في عينيه: "أنا عطشى . . . عطشى كما لم أعطش في حياتي". اقترب البدوي الأسمر خطوةً أخرى منها، كاد يسمع صهيلها الأنثوي، وقال: "عطشى إلى ماذا؟"
قالت بصوت متهدّج: "عطشى إليك . . ."

صمتَ وصمتتْ، ما أجمل الظّمأ فـــي بحيـــرة العـــشق!
ارتفعتْ سيوف القبيلة مهدّدةً سيوف الـــضّيوف ،التـــي هـــدّدت الأسيرة العاشقة بالموت، صرخ الأبّ: "خائنة، ساقطة، اقتلوهـــا، لقد جلبتِ العار لنا. كيف تختارين آسرك على أهلك؟! لقد جئـــتِ

ببدعة ما سمعتْ بها العرب من قبل، كيف تقبل حرّة أن تكــون في ظلّ آسرها؟"
قالت بتعب مهرٍ ركض حتى آخر الدنيا: "أنا عطشى . . ."

ورحلتْ قافلة العطش، كانت قافلة عطشى إلى الحــبّ، ومطعونة في كرامتها على يديّ مهرتها الجميلة، هذه المرّة لــم تدفن الرّمال حكايتها في جوفها الجافّ، بل أذاعتهــا فــي كــلّ الصّحراء، شعرتْ القافلة بأنّها محمّلة دون إرادتهــا بــالعطش، العطش إلى الحبّ والعشق، لكنّ أحداً لم يجرؤ على أن يــصرّح بعطشه، عند أوّل واحة سرابيّة ذبح الرّجال الكثير من نــسائهم، اللّواتي رأوا في عيونهنّ واحاتٍ عطشى، وعندما وصلوا إلــى مضاربهم، وأدوا طفلاتهم الصغيرات؛ خوفاً من أن يضعفن يوماً أمام عطشهنّ، وفي المساء شهد رجال القبيلة بكائيّة حزينة، فقــد كانوا هم الآخرون عطشى.

العطش إلى الحبّ أورث الصّحراء طقساً قاســياً مــن طقوسها الدّامية، أورثها طقس وأد البنات، الــبعض قــال إنّهــم يئدون بناتهم خوفاً من العار، البعض الآخر قال إنّهــم يفعلــون ذلك خوفاً من الفقر، لكنّ الرّمال كانت تعرف أنّها مجبرة علــى

ابتلاع ضحاياها النّاعمة خوفاً من أن ترتوي يوماً، كان مسموحاً للقوافل أن تعطش وتعطش، ولهـــا أن تمـــوت إن أرادتْ، لكـــن الويل لمن يرتوي في سِفْر العطش الأكبر.

النّافذة العاشقة

بيتٌ جديدٌ، ديونٌ متراكمةٌ، سنواتٌ عجفاء من الادّخار، وهاهي تحطّ أخيراً في المنزل الجديد، لم يكن متّسعاً كما تمنّتْ، ولا ذا حديقة غنّاء ليلهو فيها أطفالها الثّلاثة، الذّي كاد كبيرهم يدلف إلى سنّ الشّباب، ولكنّه على الأقل كان منزلاً في حيٍّ راقٍ، تملك صكّ ملكيّته، بعبارة أدقّ يملك زوجها صكّ ملكيته.

الآن غدا عندها بيتٌ وزوجٌ وأولاد، هم جميعاً قد يكونون آمال امرأة عاديّة مثلها، لم تكن تريد أكثر من ذلك، لم تكن تأبه بجسدها ، الذي ترهّل دون مبالاة بأعين الرّقباء، ولا بملابسها ذات الموضة القديمة المنسيَّة، ولا بخضرة عينيها اللّتين غرقت فيهما الأحلام منذ زمن طويل، بالتّحديد منذ أن تزوّجت رجلاً لا يعرف من طقوس الرّجولة إلاّ لحظات الفراش، التي تمرّ مثل التقاء غريبين في مرفأ عتيق، ثم سريعاً يلوّحان لبعضهما بالوداع دون أدنى مشاعر.

شعرها الخيليّ القصير المسترسل مثل رضى طفلٍ نائم هو آخر ما تملك من أنوثتها ، التي طال فراقها لها، ونسيتها أو

كادت، تلك النّافذة المتصديّة بشجاعة لحديقة الجيران، هي نافذتها الوحيدة على أنوثتها المنسيّة، هي نافذة المطبخ الذي تسكنه ساعات طويلة من نهارها، كانت نافذة زجاجية عاديّة، قد قتلتها تنظيفاً وتلميعاً، ثم كستها بالقماش الشفاف ذي التخريمات الزّخرفية، وطوّقت الجنبات المتدليّة من هذا القماش بشرائط السيتان الحمراء، ذلك كلّه كان في البداية.

ثم فتحتْ هذه النّافذة طاقة صغيرة على أنوثتها، وولّدت عندها رغبة الانتظار، وأشواق اللّقاء، لم تكن قد خبرتْ من قبل معنى لذّة الانتظار، ولم يكن انتظارها يطول للشّاب الأسمر ذي الهدبين السرمديّين، والقامة الممتدّة بسخاء، إذ سرعان ما يُطلّ ليفي بنذره اليوميّ بين يديها، كان من الواضح أنّه يصغرها بعقد من الزّمن، ويكبرها بعقود من الحيويّة والسّعادة والأمنيات والطّيش.

في البداية كرهت نظراته الفضوليّة، وانزراعه في كرسيّ بلاستيكيّ بليد في حديقته لساعات يراقبها دون أن يفوّت لحظة، أغلقت النّافذة في وجهه المبتسم كطفل مئات المرّات، سبّته في داخلها لعشرات المرّات، تعرّفت على والدته؛ فقط كي

تمرّر له معلومة مفادها أنّها متزوّجة، وأمّ لأطفال ثلاثة، وأسيرة لشيء اسمه زوج، حدّثت بعض الصّديقات عنه باستحياء، ثم حدّثت عنه كلّ الصّديقات بفضول وشكوى تستلذهما. شكته لعينيه الناعستين، ولسنين طويلة قاحلة، وكان الجواب: "إنّها نافذة عاشقة، والنّوافذ تعشق الانتظار".

فكّرت طويلاً في أن تغلق هذه النّافذة إلى الأبد، وأن تئد الانتظار، وتأمر المارد الذّي تتحّس ململاته في داخلها ليبقى نائماً إلى الأبد، لكنّها لم تستطع، بل لقد حوّلت ما أمكنها من أعمالها اليوميّة إلى المطبخ، حتّى الكيّ، واستقبال الصّديقات المقرّبات، وإجراء المكالمات الهاتفيّة، وتصليح دفاتر الطّلبة الذّين تحرق بتدريسهم أجمل ساعات شبابها من أجل دنانير حقيرة وقليلة، قد حوّلته إلى المطبخ .

وغدتْ من جديد المرأة التي افتقدتها منذ زمن طويل، وكانت تُسمى ذاتها، عادت تسمع صوت لهاث رجل مُثار في أذنيها، عاد جسدها يستردّ بعضاً من رشاقته، عادت تسمع إيقاعاً للزّمن وللحظات، اشترت بعضاً من الملابس الأنيقة، ذات الألوان الزّاهية، تعطّرت، اهتمتْ من جديد بتسريحة شعرها،

وبأصباغ أظافرها، وبرونق عينيها، وبنـــداوة بـــشرتها، عـــادت نفسها، في كلّ ظهيرة شربت عن بعد قهوتها مع فتى النّافذة، كم تمنّت لو أنّ اللحظات تتقارب، والأرض تتجاور حدّ الالتـــصاق؛ لتقطع الأمتار القريبة التّي تفصلها عن حديقة جارهـــا الوســـيم، لتحدّثه بآلاف الحكايا والأمنيات والانكسارات، لكـــن كـــان دون ذلك خوفها وزوجها وأولادها وأهلها والعالم كلّه وســـنوات مـــن الحرمان.

لأشهر عذبة كانت نذراً للنّافذة، وللأسمر الذّي ســـكنها، كثيراً ما جالستْ زوجها لتناول إفطارٍ أو غداءٍ أو عـــشاء فـــي المطبخ، حركة شفتيه اللّتين تنفرجان عن حركة مضغيّة كبيـــرة كانت تدلان على أنّه يتحدّث معها بكلام ما، لكّنها كانـــت دائمـــاً غارقة في عطر الأسمر الذّي يسكن نافذتها.

حتّى عندما ملّ الأسمر الانتظـــار، وهجـــر الحديقـــة، واختفى، وقيل إنّه تزوّج على مضض، وسافر للعمل في دولـــةٍ ما، بقيت تشتمّ أريجه، الذّي تحمله الرّيح من النّافذة، كانتْ تسمع كلماته التّي لم يقلها، تستمتع بمخاصرته لهـــا فـــي رقـــصة لـــم تحدث، تخجل من قُبله الحارّة التي لم تذقها.

كانت سعيدة، سعيدة، سعيدة جداً . . . هكذا كانت تصف نفسها لنفسها، التّي كانت تعجب منها عندما تتكوّم بلا حيلة على بلاط المطبخ إلى أسفل نافذتها العاشقة، وتنتحب بحرقة . . .

رسالة إلى الإله

قليلٌ هم من يجرؤون على السخط على الإلـــه، لكنّهـــا سخطْتْ عليه ، نعم هي ساخطة على زيوس الإله الأكبر الـــذّي ينصرف إلى المتعة والشّهوة والحبّ والسّعادة، وينـــسى أنّ لـــه رعيّة شقيّة، فينساها هي بالذّات، لقد تضرّعت إليـــه طـــويلاً ، وإلى ابنته إلهة الجمال إفروديتي وإلى إله الحبّ كيوبيـــد، كـــي يهبوها حباً واحداً فقط، لكنّ الآلهة صمّت آذانهـــا دون اشـــتياقها وآلامها ورجاءاتها، لماذا هي مسجونة في هذا الجسد الأنثـــوي البغيض؟ تريد أن تتحرّر، تتمنّى لحظة حبّ واحدة، أهذا كثيـــر على إله السّماء؟! أكثيرٌ أن تتمنّـــى رجـــلاً يحبّهـــا دون نـــساء الأرض؟ هي تشتهي مخاصرةً تستمرّ حتّى آخـــر العمـــر، لقـــد كفرت بإله السّماء الأصمّ الذّي لا يسمع شكواها.

أمسكتْ بدواة وقرطاس، وجلستْ إلى طاولتها الخـــشبيّة، وكتبتْ بغضبٍ وتحدٍ يناسبان يأســـها، وإن لـــم يناســـبا طبعهـــا واستكانتها: "رسالة إلى زيوس . . . أنـــا وحيـــدة . . . اللّعنـــة عليك كيف تتركني أعاني من كلّ هذه المعاناة؟ أريد حبّاً واحداً

يملأ ذاتي، يهصر أشواقي وذاتي، يسكن ما بيني وبين جسدي، أريد حبّاً يقتلعني من أحزان جسدي، ووحدة ساعاتي، أريده حبّاً قويَاً جبّاراً لا يعرف الألم، أريده حباًّ يمسك بتلابيب روحي، ويخلق حشرجات داميّة في نفسي، اللّعنة عليك ، استجب لي ولو لمرّة واحدة".

انتظرتْ دقائق ليجفّ القرطاس، ثمّ قدّمته لإحدى صواعق زيوس التّي اختلسته سريعاً، ووضعته بين يدي سيدها حيث يجلس على عرشه الماسيّ في أعلى نقطة من جبل الأولمب.

كان زيوس يتربّع على عرشه بجسده الضّخم وبلحيته الفضّيّة التّي تمتدّ حتّى ركبتيه، وبشعره الأجعد الذّي ينغرس فيه تاج لازورديّ لامع كبير، وعلى يمينه وقفتْ خادمته إلهة النّصر، وعلى يساره وقف جنميد حامل كأسه، وبين يديه امتثلتْ إلهة الحظّ، وإلهة الشّهرة فاما.

قرأ الرسالة التّي وصلته مرّة وثلاث وعشر على مسامعي ذاته، وبحضور حاشيته، خمّن الكلّ أنّه سيغضب من

وقاحة رعيّته، وتوقّعوا أن يصبّ جام صـــواعقه علـــى رؤوس سكّان الأرض عقاباً لهم، وامتعاظاً من وقاحة بعضهم، لكنّه عاد من جديد، وقرأ الرّسالة مرّة أخرى، وشعر بحزنٍ شـــديد علـــى تلك الآدميّة التّي تتحرّق للحبّ، ولم تذقه يوماً.

فكّر طويلاً في شكل الحبيب والحبّ اللـــذّيْن تطلبهمـــا، أعمل فكره وإبداعه في خلقهمـــا،وأخيراً خلـــق (هـــاديس) إلـــه الموت، كان صادقاً جداً، وقويّاً كما طلبت، كـــان قـــادراً علـــى اختراق الأجساد، والسّكن في ما بينها وبـــين الـــرّوح، أرســـله سريعاً إليها، كانت قانطةً تنتظر غضب زيوس، لكـــنّ هـــاديس خيّب توقّعاتها، جاء مسرعاً وعطشان وراغباً ومـــصمّماً علـــى أخذها دون باقي نساء الأرض، امتدّت يده السّوداء القويّة إلـــى تلابيب روحها، سكن ما بينها وبين جسدها، ملأ ذاتها العطشى، اقتلع وجودها من جذوره، أنقذها من ســـجنها الجـــسديّ، أحكـــم وثاقه على تلابيب روحهـــا، وانتزعهـــا دون رحمـــة، كانـــت حشرجات الموت رائعةً لذيذة، خلا جسدها من كلّ شيء إلاّ من حبّها العارم، شعرت بسعادة العشق، وقبل أن ترحل مع هـــاديس إلى مملكة العطش، أرسلت زفرة شكر للإله زيوس، وغابتْ في الموت.

حملتْ الصواعق زفرات الرّضى العاشقة إلـــى زيـــوس الذّي كان يرقب ما يجري باهتمام، غار في عرشه بارتياح، أمر بصرف جميع من حوله، حتّى إلهة النّصر المفضّلة عنده أمـــر بصرفها. من جديد قرأ الرّسالة الغاضبة التّي كانت قد وصـــلته من أيّام، قرأها بصمت في أوّل مرّة، في ما بعد جهر بكلّ كلمـــة فيها، في لحظةٍ نسي أنّه الإله الأكبر، وتمنّى لـــو أنّـــه يحظـــى بلحظة عشق حميمة كالتّي طلبتها الآدميّة ساكنة الأرض.

في لحظاتٍ قدّرها البشر بآلاف السنين من صمت الإلـــه زيوس، واحتجابه دونهم، تذكّر كلّ من عشق من نساء وإلاهات، كانت سلسلة طويلة من العشق والعشيقات، عشق هيرا، ويوربا، ولاتوفا، وإنتيـــوبي، وديـــون، ومايـــا، وتـــيمس، ويورنيـــوم، ومنيموزين، وأورينوما، وسيميلي الجميلة، والكمينـــة، ودانـــاي، وليدا، والكثير الكثير من اللّـــواتي نـــسي أســـماءهن. ذاق آلاف النّساء، عرف كلّ آهات وانكسارات العشق، ولكنّه ما زال يتمنّى العشق،ما زال يحلم بلحظة حبّ، تمنّى لو كان له هو الآخر إله؛ ليرسل إليه رسالة يتضرّع فيها كي يذيقه العشق الحقيقيّ، ولـــو لمرّة واحدة في الحياة.

تنهّد طويلاً، فأحرقت تنهّداته وزفراته الكثير من بقـاع الأرض، وضجّ البشر بالشّكوى، عندها تذكّر أنّه إله، وأن لـيس من حقّه أن يتمنّى ولو حتّى في لحظة ضعف، طـوى الرّسـالة التّي يحملها، وجعلها في خزائن أوراقه، اتّكأ على حـشيةٍ فـي مضجعه، وطلب حضور ساقيه، شرب كثيراً، وفي آخـر اللّيـل أصدر مرسوماً إلهياً يمنع وصول رسائل العـشّاق إليـه؛ لأنّ لا وقت عنده لوجع قلبه فضلاً عن قلوب البشر، وغرق في سـباتٍ طويل.

- تعديل على المرسوم: الإله زيوس لم يكن معنيّاً بالحبّ.
- تعديل على المرسوم الثّاني: هذه أسطورة لم تحدث.
- تعديل أخير: زيوس لم ينم في اللّيلة التّي سكر فيها، بـل أمضى ليله باكياً، وكتب رسالة إلى مجهول.

الفزّاعة

ملابسه رثّة، قبّعته قديمة، فيها خرقٌ كبير، قدماه خشبيات ، عيناه زرّان مختلفا اللّون، وفمهُ مخاطٌ على عجل، ولا أذنين له، وقلبه من القشّ، وخصره نحيل، وجسده مصلوبٌ ليل نهار، ولكنّه يحبّها، لا يحبّها فقط ؛لأنّها هي من خاطته، وزرعته في هذا المكان، ولكنّه يحبّها؛ لأنّها رقيقة ولطيفة، ويعشق صوتها ذا الرّنين العذب كلّما غنّت.

صنعته بيديها الصّغيرتين النّاعمتين منذ أشهر طويلة، وزرعته في هذا المكان من حقل الفراولة كي يفزع الطّيور والعصافير، ويمنعها من مداهمة الحقل وأكل الثّمار، وقد قام بعمله على أتمّ وجه يُرجى، أوّلاً؛ لأنّه فزّاعة وقد خُلق ليفزع الطّيور، ثانياً ؛لأنّه يحبّها، ويريد أن يحافظ لها على محصولها المتواضع الذّي من الواضح أنّها تعتاش منه.

لا يتذكّر كيف بدأ قلبه القشّيّ بالعزف، ولكنّ صوتها كان أوّل من حرّك الحياة في ذاته، كان كسير الرّقبة، متدلّي

الرّأس، متراخي الأعضاء منذ أن نُصب في مكانه، لكــنّ قلبــه أخذ بالخفقان عندما سمع صوتها الشّجيّ، كانت حافية القــدمين، رنين خلخالها ودفق لهاثه هو كلّ ما يسمع وهــي غارقــة فــي الاعتناء بأشتال الفراولة، إلى أن انتصفت الــشّمس فــي كبــد السّماء، وبدأت خيوطها بمداعبة شعرها العسليّ الهائج كــامرأة غجريّة، وجادت قريحتها وقتئذٍ بدندناتٍ عذبة محمّلــةٍ بــصوتها الشّجيّ، كانت أغنيةً حزينة كسيرة تناسب وحدتها ومشقّتها فــي الأرض، لحظتها شعر بأنّ قلبه ينبض، وأنّ الحيــاة تــدبّ فــي أوصاله الخائرة فتصلبها، وفي جسده الكسير فترفعه، وفي قلبــه الميت فتحيه، وتهبه وجيباً لا ينضب، ومنذ تلك اللّحظــة غــدا أسير صوتها العذب.

كان يراقبها ليل نهار دون أن يكلّ أو أن يتعــب، فــي عصر يومٍ ما تعبت من العمل في الحقل، فأسندتْ ظهرها إلــى ركيزته الخشبيّة لترتاح، كم كان سعيداً بجسدها اللّين وهو يركن إليه!! ابتسمتْ له ،وقالتْ بعد أن ألقت نظرةً عجلى على الثّــوب الذّي يلبسه: "يا له من ثوبٍ قديم! لا تحزن يــا عزيــزي، غــداً أصنع لك ثوباً آخر يليق بك، وبجهودك التّي تبذلها" وعادت من

جديد إلى إسناد ظهرها عليه، وهي تأكل شـيئاً مـن الفراولـة المزروعة بالقرب منهما بشهية مثيرة.

تمنّى لحظتئذ لو أنّه يملك الجرأة الكافية ليـردّ عليهـا، وليشكرها على لطفها، وليرجوها أن تُـسمِعه أغنيـةً يحـبّ أن يسمعها منها دون كللٍ أو ملل، لكنّه خـشي أن يفزعهـا هـي الأخرى، ولعلّه خشي أكثر أن ترفضه، وتقشعرّ مـن منظـره، فينكسر قلبه القشّيّ دون رحمة.

وصدقت وعدها، وفي اليوم الثاني كسته ثوباًجديداً، مـن رائحته أدرك أنّها قد خاطته من ثوبٍ قديم لها، شـعر بـسعادةٍ عظمى وهو يغرق في كساءٍ يحمل رائحة جسدها الزّاهد بكثيـرٍ من العرق، شعر بأنّه يملك سعادة الدّنيا، فأذناه تسمعان صـوتها الخلاّب، وأنفه يشمّ أريجها العذب، وجـسده يحتـضن ثوبهـا، وعيناه تراقبانها بفضول أينما ذهبت.

لا يعلم شيئاً عنها ولا عن تاريخها، إلاّ بمقدار الأشـهر القليلة التّي عاشها مصلوباً في أرضها، كانت أرضها صـغيرة، مسيّجةً بسياجٍ خشبيٍّ قديم، لا يعلم ماذا يكون وراءه، ولا يعرف

في أيّ البلاد تقع هذه المزرعة، وهي تعيش في كوخٍ كبيرٍ قديم، ومن الواضح أنّها تعيش فيه وحدها، فهو لم يلمح عندها أحداً من أشهر، ومن مكانه هذا يستطيع أن يرى غرفة المعيشة وغرفة نومها التّي تقضي الكثير من الوقت فيها، يرى الكثير من الصّور المسجونة في براويز فضيّة وخشبيّة على طول سطح مدفأةِ غرفة المعيشة، ولكنّه لا يستطيع أن يرى أو يخمّن لمن تكون.

قليلاً ما تغادر البيت والمزرعة، لتعود سريعاً محمّلةً بالفاكهة والخضار واللّحوم وبعض مستلزمات الأرض ، فيقدّر أنّها كانت في السّوق. يسعده مرآها وهي قادمةٌ من البعيد، متدثرةً بشالها المخمليّ القديم، وهي تدندن بأغانيها الشّجيّة، يكاد يطير للقائها، وليحمل الأكياس التّي تتكبّد حملها مسافةً تبدو طويلةً من لهاثها ومن احمرار وجنتيها.

هذا اليوم من بدايته بدا استثنائيّاً ،ويومئُ إلى استقبال ضيفٍ ما، هي لم تعمل كثيراً في الحقل، وأمضتْ يومها في كوخها الصّغير، من نافذتَيْ غرفة النّوم والمعيشة اللّتَيْن تواجهانه راقب حركاتها، كان من الواضح أنّها معنيّةٌ بتهيئة المنزل

والطّعام، مع الغروب بدأت بتجميل نفسها، لبستْ ثوباً قرمزيّاً ساحراً يظهر أديمها الأسمر، ومشّطتْ شعرها العسليّ، وأرختْه أنهاراً هائجةً على كتفيها، قدّر أنّها مثارة وسعيدة، وحار مَنْ أو ماذا لعلّها تنتظر اللّيلة؟

أخذت بعزف البيانو الذّي قلّما تعزف عليه، وأخذتْ تصدح بأغنيةٍ شجيّة، كانت مستغرقةً في غنائها الملائكيّ، وكان يذوب في مسك كلماتها، إلى أن دخل ذلك الوسيم الذّي أقلّته درّاجة هوائيّة قبل دقائق، كان يحمل باقةً صغيرةً من الفلِّ البلديّ، قبّلها، وطوّق خصرها بيديه، واندسّ إلى جانبها على البيانو يعزف معها، كان عزفهما على أوتار قلبه الذّي أدرك معنى الحزن والغيرة لأوّل مرّة. لكنّه كان سعيداً لأجلها على الرّغم من حزنه، وتمنّى من كلّ قلبه الذّي يملك أمنيات صغيرة صادقة لو أنّه يهجر مكانه ،ويقرع باب بيتها، وينضمّ إليهما، ولكنّه كان يعرف تماماً أن لا مكان له هناك!

راقبهما طويلاً من مكانه، تناولا من طعامِ العشاء، وعزفا معاً من جديد، ثمّ راقصها على أنغام موسيقى المسجّل، سارتْ الأمور على نحو يستطيع أن يصفه بالانسجام وبالحبّ،

لكن ما لم يستطع أن يفهمه هو التّغيّر الذّي حدث بعد ذلك، فقد تعالى صراخهما، وبدا أنّ ناراً تشتعل بينهما، ثمّ غادر المكان غاضباً، وصكّ الباب بقوّة كادتْ تخلعه، ارتمت حبيبته على أريكة قريبة من الباب، وانخرطت في البكاء، كان صوت بكائها لا يقلّ جمالاً وتأثيراً في نفسه عن صوت غنائها، قدّر أنها حزينة جدّاً، وفي حاجةٍ إلى قلبٍ يحبّها بشدّة، لقلبه مثلاً، كاد يناديها من مكانه ليسألها عن سببٍ حزنها، ولكنّه تذكّر أنّه لا يعرف اسمها، فهو لم يسمع أحداً يناديها باسمها من قبل حتّى يعرفه، فكّر قليلاً، ثمّ استجاب إلى وجيب قلبه، ترجّل عن مكانه، وقطع الحقل الصّغير، داس دون أن يقصد بعض حبّات الفراولة الحمراء، لم يقرع الباب، فتحه دون انتظار ، ودخل إلى الكوخ .. .

سبيل الحوريّات

يختلس أوّل فرصة لينزل إلى الأسواق القديمة التّي تحتضن عشرات الآثار القديمة، يحبّ الهندسة المعماريّة التّي يدرسها من سنين، وما زال عالقاً فيها مع أنّ أترابه قد تخرّجوا من كلّيتها منذ زمن، لكنّه فنّان يحبّ أن يرسم الآثار القديمة، ويحبّ أن يملك سِفْراً عظيماً فيه صورٌ لكلّ الأماكن الأثريّة الجميلة، ولا يعنيه تصميم المباني، كما لا تثيره هندسة عمارة الأسواق. يعرف كلّ شبرٍ من الآثار في هذه المدينة القديمة، فقد رسم وتعلّم فيها، رسمها بنظرة المهندس، فغدتْ لوحاته كأنّها صور فوتوغرافيّة عمرها آلاف السّنوات، يرسم لوحة واحدة لكلّ مكان أثريّ يستهويه، ولا يزيد، لكنّه منذ أيّام طويلة عالق أمام سبيل الحوريّات، يرسمه من قريب، ومن بعيد، من أكثر من زاوية، يضفي عليه أرواحاً وأجساداً وضحكات، تغيب منه أجزاء في اللّوحة، وتحضر أخرى، لكنّ وجهها هي بالذّات عنصرٌ ثابت في كلّ لوحاته.

يقول لأصدقائه الذّين عجبوا من لزومه لـــنفس المكـــان يرسمه لساعات طويلة يوميّاً دون ملـــل:" إنّـــه مفتـــونٌ بـــسبيل الحوريّات". وهو حمّام رومانيٌّ قديم، تهدّم معظمه بفعل الزّلازل الأرضيّة، ولكنّ فنـــاءه الـــداخليّ، وغـــرف تبـــديل الملابـــس، وأحواض الاستحمام ما تزال بكامل وجودها، وإنّه يتخيّـــل فيـــه عشرات النّساء العاريات كأقمار في ليلة صيف، وإنّه ينـــاجيهنّ ويستمتع برؤيتهنّ وبمـــداعبتهنّ . فيـــضحك الجميـــع، ويبتـــسم مزهوّاً، لكنّه يعلم تماماً أنّ شيئاً آخر يستهويه في هذا المكـــان، شيئاً لا يقلّ غرابةً عن هوايته، وإن فاقها جنوناً وتطرّفاً.

تستهويه هاجر، نعم تستهويه بكلّ ما فيهـــا، بملابـــسها القذرة الممزّقة، بأطرافها المتُسخة، بأظافرها القـــذرة، بـــشعرها الأشقر المتطاير بفوضى مسحتْ أيّ أثر لتمـــشيط حـــدث فـــي الزّمن الغابر، بدموعها التّي تذرفها وهـــي تـــستجدي المـــارّة، بحالات الجنون التّي تنتابها، فتجعلها تتعـــرّى مـــن ملابـــسها، وتنصّب نفسها إلهة مجنونة ترقص عارية في سبيل الحوريّـــات، والصّغار يتصايحون، والرّجال يحوقلون، وبعض النّساء تتبـــرّع لسترها بملابسها من جديد.

هي مجنونة، اسمها هاجر المجنونة، لا أحد يعرف عنها أكثر من ذلك، نهاراتها تقطعها بين آثار سبيل الحوريّات، وفي اللّيل تتكوّر في ركن منه، وتنام ملء شواردها، لأكثر من مرّة حاولت شرطة المدينة أن تبعدها عن هذا المكان؛ لأنها تسيء إلى السّياح الذين يقصدونه ، لكنّها كانت تعود في كلّ مرّة، كانت تفرح عندما تلمع في عينيها أنوار كاميرات السوّاح، وفي النّهاية أصبحت جزءاً من سبيل الحوريّات، ولم يعد أحدٌ معنياً بإبعادها، حتّى الشّرطة نسيت هذا الأمر.

قابلها لأوّل مرّة وهي في نوبة من نوبات جنونها، كانت تصرخ والأطفال يزعجونها بمكائهم وتصديتهم، وقفت على حوض من أحواض السّبيل القديمة، وأخذت تتعرّى، في لحظة كانت عارية تماماً، حافية القدمين، متطايرة الشّعر، كانت قذرة الأعضاء، غير مهذّبة الشّعر، لكنّها كانت جميلة، بجسد بلّوري صاف، وأعضاء متناسقة منسابة، لحظتها شعر بأنّها إلهة مسحورة، ينفكّ سحرها في ماءٍ مقدّس، كانت في قمّة غضبها وخروجها عن عقلها، لكنّها أسرته، شيءٌ فيها جعله يتوقّف، ويتأمّلها طويلاً، لم يكن جسداً يتأمّل جسداً عارياً، ولم يكن رجلاً تجذبه امرأة، كان نفساً تتذوّق نفساً، وإن كانت في قمّة جنونها ،

وهروبها من العقل، تمنّى أن تطول موجة جنونها، لكنّها سـريعاً ما تلاشت، وبقيت هاجر عاريةً في المكان والعيـون والحنـاجر تنهشها، اقترب منها، تناول ثوبها الرّث من الأرض، في حـين خشي الكلّ ذلك، خوفاً من أن تصيبهم هاجر بحجرٍ دامٍ كعادتها، دسّ الثّوب سريعاً في رأسها، سربلها به؛ ليغطّي كـلّ جـسدها، وربّت على كتفها بهدوء، ورفع بعض عقارب شعرها، فرأى في عينيها ما حجبته خصلات الشّعر طويلاً، رأى عينين هـادئتين، رأى امرأة مكسورة حزينة، رأى امرأة لم يتّسعها العقل، فهربتْ إلى الجنون.

ومنذ ذلك اليوم لم يرها في أيّ حالة جنون، وإن بقيـت هاجر المجنونة التّي تستجدي المارّة، وتفرح بـصور الـسوّاح، رسمها لعشرات المرّات، كانت تعتدل أمام صوره، وتلزم مكانـاً واحداً، كان متأكداً من أنّها تفهم ماذا يفعل، كـان فـي عينيهـا حديث طويل، عندما كان يتمنّها كان يبتسم، وكان يدهش عنـدما يرى ابتسامة مماثلة ترتسم في عينيها في نفس اللّحظـة، كـان متأكّداً من أنّها غير مجنونة، ولكنّها مكسورة بشدّة.

مرّةً أهداها مشبكين للشّعر، كانا ذهبيين بلون شـــعرها، عندما اقترب منها، وطوّق بهما خصلةً مـــن شـــعرها ابتـــسمتْ بعمق، ثمّ ولّت هاربة نحو البعيد، في اليوم التّـــالي كـــان مـــن الظّاهر أنّها بذلت محاولةً جادّة لتمشيط شعرها، كان المـــشبكان الذّهبيان يزهوان بشعرها الأشقر، وبوجهها النظيفٌ، وبحركاتها الهادئة.

واقترب الشّتاء، ومع أوّل قطرات مطر منـــه، فـــسدتْ اللّوحة التّي يرسمها، كانت أيضاً لسبيل الحوريّات، وفي خلفيتها وجه هاجر الباسم، ونظراتها البريّة المتوحّشة بلذّة، تأفّف بـــشدّة عندما تداخلت الألوان، وأبدى أسفه، لحظتها كان معنيّاً باللّوحة، ولم ينتبه إلى هاجر التّي اقتربت من اللّوحة، وتناولتها من يديه، وحدّقت فيها قائلة بنبرة واثقة وإن كانت الحروف مضطربة: "يا . . . يا . . . يا خسارة . . . فَسُدَتْ اللّوحة ".

حدّق فيها طويلاً بدهشة، وشعر بأنّ سيّدته البريّة التّـــي يراها كلّ يوم في أحلامه هي هاجر، جعل اللّوحة تحت إبطـــه، وجمع أدوات الرّسم، وعلّق حاملة اللّوحات الخشبيّة على كتفـــه الأيسر، وفتح كفّ يده اليمنى، التّي استقبلت بكلّ الرّضى كـــفّ

هاجر المجنونة، واتّجه إلى شقّته الصّغيرة التّي يستأجرها في الحيّ اللاّتيني القديم منذ أن وطأ هذه المدينة للدّراسة منذ سنوات طويلة.

دخلت هاجر إلى الشّقة بكلّ رضىً وسعادة، ولم تخرج منها أبداً، واختفتْ هاجر، وافتقدها سبيل الحوريّات، وإن لم يفتقدها أحدٌ آخر؛ لأنّ المجانين لا يفتقدهم النّاس، كذلك اختفى الفنّان الذّي ظهر من جديد في مدينة أخرى، حيث لم يعرف أحدٌ أنّه يحترف الرّسم، لكنّ الكلّ كان يعرف أنّه مهندس معماريٌ بارع، ناجحٌ في عمله، ويملك زوجةً رائعة، حلوة المعشر، هادئة النّفس، وإن كان زوجها الوحيد الذّي يعرف أنّه يملك زوجةً ساحرة عيبها الوحيد أنّها تتعرّى عندما تغضب، وتشرع في البكاء.

تيتا

هذه المرّة كان مصمّماً على أن يضع حدّاً لكلّ تجاوزاتها، لقد أفسدت عليه كلّ سكّان البلدة، لقد أضاعتْ جهد سنوات، وكانت الطّامة عندما وجد بعض مواطنيه يلجؤون أيضاً إلى أعشابها اللّعينة، ليعترف أنّه لا يغار منها، ولا يكره أن تقدّم المساعدة للمرضى مقابل الزّهيد من المال أو حتّى الفواكه والبقول والقمح، ولكنّها تتحدّاه بنظراتها العميقة، يرى جبروت الدّنيا في بريق عينيها، عندما تتركه محتجّاً ، وتستدير قافلة إلى مضارب قومها يشعر بأنّ ردفيها الجميلين الصّغيرين يتحدّيانه، ويخمّن أنّها تدلّي لسانها ساخرةً منه، وتغادر وصوت حليتها المرصّعة بالجمان والأصداف البيضاء ما تزال تصدح في أذنيه.

يكره أنّها لطيفة وذات ابتسامة عريضة تظهر أسنانها اللاّمعة، يكره بشرتها السّوداء كما القهوة البرازيليّة، يكره كلّ شيء فيها، ويكره أنّ عليه أن يبذل جهداً جبّاراً لكي يحافظ على كرهه المزعوم، ولولا ذلك لكان يحمل الآن شعوراً مختلفاً لا

يجرؤ على أن يحدّث نفسه به، كرهه لها أو أيّاً كان اسمه قد ملأ عليه حياته الرّتيبة في هذا المكان، فمنذ أن جاء مع الصّليب الأحمر، واستقرّ في جنوب نيجيريا في هذه البلدة منذ سنوات طويلة، وهو يقطع الأيّام في الوحدة الصّحيّة الخيريّة التّي يرأسها، إلى أن جاء موسم هجرة قبائل البورورو إلى مناطق الكلأ في بداية موسم الأمطار، وجاءت مع قومها البدو الرّحل المتمرّدين على أبسط قواعد التّحضّر والمدنيّة التّي يتقزّزون منها، ويسمّون أهلها (أكلة الحبوب).

هي من قبيلة (ودابه)، وتعني المنعزلين، هم منعزلون عن كلّ شيء، ولكنّهم ملتحمون بطبيعتهم؛ لذلك يفهمون طقوس نباتاتها، ويعرفون أسرارها، ويشتهرون بمنتجاتهم الصيدلانيّة، يستطيع أن يعترف بأنّها كثيراً ما تفيد مرضاه بأدويتها الطّبيعيّة أكثر مما تفعل أدويته الكيميائيّة التّي يقدّمها مجّاناً للمرضى بدعمٍ من جهاتٍ خيريّة عالميةٍ.

ولكنّ شيئاً فيها يستفزّه، أشدّ ما يستفزّه أنّها تولّي هاربةً كلّما دعاها إلى ضيافته، يتمنّى لو أنّها تجالسه كما تفعل مع نساء ورجال البلدة، يتمنّى أن تقبّله كما تفعل مع الأطفال شبه

العُراة الذّين يلعبون في طريقها، تلك الألوان الصّفراء التّي تزيّن وجهها تشغله طويلاً مع أنّه ألفها على وجوه نساء البورورو الرّحل، لكنّ تلك الألوان على وجهها الباسم بصفاء تصنع لها جمالاً خاصاً .

مرّة رآها ترقص في احتفال شعبيّ في سوق البلدة، كانت تحمل كيساً من القماش، تعلّقه على كتفها الأيمن، فيمتدّ حتّى ركبتيها، تضع فيه أعشابها ومراهمها، وضعته جانباً، وكادت الأقدام أن تدوسه، ولكنّها لم تبالِ، فرفعه عن الأرض، وحمله لها، وراقبها طويلاً، كانت تلبس ثوباً قطنياً خشناً مزركشاً وموشّىً بالأصداف والرّيش والمرصّعات، ومفتوحاً من الجانبين حتّى أعلى الفخذين، اللذين يظهرهان أسمرين ممشوقين، كما يظهر من الأعلى صدرها الكبير الممتد دون قيود حمّالة الصّدر التّي لا تستعملها أبداً، بل متحرّر كزرياب شادٍ.

رقصتْ طويلاً، ودارتْ الأرض به أينما دارتْ، كان الكلّ يشجّعها، ويهتف لها مشجّعاً باسم تيتا، أحد الشّبّان اقترب منها ،وراقصها برشاقة، أزعجه ذلك، ولكنّه لم يسمح لذلك أن يحرمه من متعة مراقبة تيتا الجميلة، عندما أنهت رقصتها

الشّعبيّة، اقترب منها، وناولها حقيبتها القماشيّة قائلاً: "هذه حقيبتك".

غادرت تيتا المكان، ولكنّ الأرض بقيت تدور به طويلاً، ولم يتوقّف الدّوران إلى أن رآها بعد أيّام، كانت في بيت امرأة تضع مولودها الأوّل، وكانت الولادة متعسّرة إلى درجة الموت، عندها أدركت تيتا أنّها في حاجة والمرأة التّي تضع مولودها إلى مساعدة الطّبيب الأوروبيّ الأشقر، جاء سريعاً، ليقدّم يد العون، ولكنّ الأرض عادت إلى الدّوران عندما رأى تيتا، التّي اشتمّ طويلاً عبق جسدها العنبريّ المغري. بعد ساعات طويلة جاء الطّفل قطعةً رخوة باكية بعد رحلة ولادة شاقّة.

أسماه الأب على اسم الطّبيب الذّي ساعده، ولتيتا قدّم الشّكر الطّويل، ليلتها عرف أنّها تلقّب بالكاهنة، فهي في نظر قومها الذّين لا يدينون بأيّ دين من أديان الدّنيا، وإنّما يدينون لطقوسٍ غريبة كاهنة مقدّسة، وهي بنظرهم ساحرة، يلجؤون إليها لتقرأ لهم الطّالع، ولتبحث لهم عمّا فقدوه، ولترشدهم عبر الصّحراء إلى الطّريق الصّحيح لقوافلهم.

تساءل في نفسه، أتراها قد سحرتني؟ عاد مـــن جديـــد، وسخر من هذه الفكرة السّاذجة التّي سيطرت على ذهنه، فهو لا يؤمن أصلاً بالسّحر، ولا بالسّحرة كذلك، ولكنّ تيتـــا ســـحرته، نعم، لقد فعلت ذلك. اقترب منها، وقدّم كفّ يده اليمنى لها، وقال بابتسامة واسعة: "اقرئي لي طالعي". نظرت في وجهه الأبـــيض الذّي لوّحته الشّمس، فكسته حمرةً مثيـــرة، وهـــي تقفـــل كفّـــه، وتحتضنها بين يديها الصّغيرتين: "أنا متعبة الآن، تعـــال مـــساءً إلى قبيلتي، وسأقرأ لكَ طالعك، ومجّاناً أيضاً".
قال في نفسه: "لن أذهب أبداً، لن استجيب لشعوذة هذه الـــسّاحرة اللّعينة، نعم لن أذهب،من تظن نفسها؟!"

ومع حلول قمر المساء كان قَهْرَ أنفه في الطّريـــق إلـــى قبيلتها، استعان بأحد صبية البلدة ليوصله إلى هناك، كان المكان يضجّ بالهرج والمرج، صوت الطّبول والموسيقى المحليّة يزحم المكان، الذّي يزخر بالرّجال والنّساء، كان الرّجال يصطفّون في صفّ طويل يرقصون، ويصدحون بأغنية يكرّرونها دون ملـــل، ويصبغون وجوههم بمسحوقٍ صلصاليّ أصفر اللّون، ويكحّلـــون شفاههم بمادّة ســـوداء لامعـــة، ويـــضفّرون شـــعر رؤوســـهم

بالأصداف والرّيش، أمّا النّساء فكنّ يلبسن على ما يبدو أزهى ما عندهنّ من ملابس.

لم يعرف سبب هذه الظاهرة، وقدّر أنّها حفل زفاف، لكنّه عرف من الصّبي أنّ هذا الحفل هو حفلٌ سنويٌّ موسميٌّ اسمه مهرجان (غيروال)، أو عيد جمال الأجساد، حيث يتزيّن الشّباب، ويعرضون أنفسهم للفتيات؛ ليخترن أجملهم جسداً ، ليطلقوا عليه في ما بعد لقب (توغو)، هذا المهرجان هو مهرجان الجمال والحبّ والجسد، ففي هذه اللّيلة يُباح لكلّ فتاة أن تهرب مع من تعشق، حتّى لو كانت متزوّجة، فهي تستطيع أن تهجر زوجها في هذه اللّيلة، وأن تهرب مع رجلٍ تعبد جماله.

كان المكان يعجّ بالحياة، بحث عنها بعينيه إلى أن وجدها، كانت تجلس أمام خيمتها بكامل زينتها وجمالها، كانت تضاحك الفتيات، سريعاً ما أمسكتْ عيناها عينيه متلبّستين بمغازلتها، هربت من المكان، وانزوت في داخل خيمتها، اجتاز سريعاً جموع الرّجال المصطفّين في رقصتهم التّقليديّة الصّاخبة، وتجاوز الفتيات المتناوبات على الدّلال، ودخل إلى خيمتها، كان طويل القامة، ممتلئ الجسد، بعينين خضراوين، وشفتين عذبتين

مثارتين، لم يكن بجسد متجانس الأطراف ونحيف البنية، وأنف مستقيم، وعينين سوداوين، وأسنان ناصعة بيضاء، وشفتين مطليّتين بالسّواد كما هو حال وسيمي قبيلتها، الذّين يحملون صفات الجمال التّقليديّة عند قبائل البوروورو، ولكنّها كانت تحبّه، نعم تحبّه كما لم تحبّ يوماً، لم تنفع أدويتها، ولم ينفع سحرها في تجاوز هذا المرض اللّذيذ.

خطا خطوتين إلى داخل خيمتها، كان يتفرّس في قسماتها بنظرات جائعة، قالتْ له بتلعثم وبشجاعة مزعومةٍ: "ها قد جئت إذن، هل أقرأ لك كفّك؟" قال: "بل جئتُ لأخطفك يا ساحرتي الجميلة". اقترب منها بجسده القويّ، وانحنى قليلاً، وحملها، وألقى بها على كتفه، فانزلق نصفها الأعلى على ظهره، بينما بقي حاضناً فخذيها، وولّى بها هارباً، يقطع شيئاً من رمال الصّحراء،وهو يحمل ساحرته السّوداء، تتهّد شوقاً ورغبة، كان مجنوناً مسحوراً، وخمّن أنّه لن يُشفى أبداً.

الرَّصَدْ

جاء من آخر تخوم البحر، هدفه رجلٌ واحد، قرأ عنه في طلاسم العهد الغابر، ووجد اسمه وزمنه مكتوبين في كتاب السّحر الأكبر، يعلم تماماً أنّ في هذه القرية النّائية، المكتوبة في النّسيان كنزٌ عظيم، وأنَ هذا الكنز تحرسه جنيّة أفعى منذ آلاف السّنوات، وأنّ هذا الكنز مرصود على اسم رجل بسيط اسمه عزّوز الأعور. منذ سنوات يترقّب هذه السّنة وهذه اللّيلة، حيث السّنة كبيسة، والمذنّب الأعظم يخترق مجال كوكب الزّهرة منذ ألف عام، ستُفتح بوّابة كهف الرّصد في منتصف هذه اللّيلة تماماً،لا قبل ولا بعد، وهناك سينتظره الكنز الذّي لم تجد الأيدي حيلة إليه.

وصل السّاحر اليهوديّ الأكبر إلى القرية مع أوّل خيوط الصّباح، ضرب الرّمل بحجارته السّحريّة، فعرف من خطــوط الرّمل ومساقط الحجارة الطّريق إلى رجله المنشود، قصده على عجل، كان بيته الطّينيّ الحقير في آخر القرية إلى جانب ســفح الجبل، عرفه منذ رأى الدّهشة في عينــه اليتيمــة، أمّــا عينــه المظلمة فرأى فيها كنزه، وطلاسم الرّصَد. أخبره أنّــه طِلْبَتُــه، وقال له إنّ اسمه موجود في سِفْر السّحر الأكبر، وإنّ على يديه

يُفكّ الرّصد، عندها سيتقاسمان الكنز، فيعود الأوّل إلى موطنه في آخر الدّنيا، ويرى الثّاني بعينه اليتيمة ما لم يره رجل من قبل بعينيه الاثنتين من غنىً وجاه.

لطالما سمع عزّوز عن الكنز المرصود في أعلى جبل القرية، سمع الجدّات تتغنّى به، وتروي قصص الذّين هلكوا دونه، وسمع راوي ديوان المختار يُسيّل لعاب الرّجال بقصص الكنز وبجمال الجنيّة الأفعى التّي تحميه، ولكنّه لم يكن يعلم أنّ اسمه هو الرّجل الضّئيل الحقير الذّي تزدريه الأعين، وتتحاشاه الأقدام لقذارته مكتوبٌ على طلاسم هذا الكنز.

القرية أنهتْ يومها مبكّرة مع أفول الشّمس، أمّا السّاحر وعزّوز فكانا على موعد مع الظّلام، أشواك الطّريق أدمت أقدامهم في الظّلام، عباءة اليهوديّ الطّويلة احتوت الكثير من غبار ورمال الطّريق، قلب عزّوز كان يخفق بقوّة دون توقّف، تخيّل أنّ وجيب قلبه لقوّته يفزع هوام اللّيل، أمّا أذناه فكانتا مشنّفتين تردّدان وصايا اليهوديّ، لعشرات المرّات ذكّره اليهودي أنّ هلاكهما في أيّ كلمةٍ يقولها عزّوز، قال له بحزم: "أنا سأقرأ الطّلاسم، وأنتَ عليك الصّمت، إيّاك أن تتفوّه بأيّ

كلمة، مهما رأيت الزم الصّمت، إن تفوّهت بكلمةٍ واحدة ســنهلك كلانا، وسيغلق الكهف على الرّصد لألف سنة أخرى.

وصلا أخيراً إلى الكهف، كان المذنّب الألفيّ يجري في السّماء أعلى الجبل، انفتحت بوابة الكهف بصريرٍ حجريٍ قوي، كانت البوّابة صخرة عظيمة ملساء بيضاويّة، أشعّة القمر أنارتْ أرض الكهف، كانت جماجم المغامرين الذّين وصلوا إلى هذا المكان تملؤه، ابتلع عزّوز ريقه بصعوبة، انتشر الوجل في عينه، نظر اليهوديّ في عمق عينه، وقال: "إيّاك أن تتفوّه بأيّ الكلمات". أومأ عزّوز برأسه بالإطاعة.

وبدأ اليهوديّ بترديد طلاسمه السّحريّة، واشتعل المكــان نوراً، كانت ترانيم اليهوديّ باعثةً للجنيّة الأفعى، استيقظت مــن سباتها الطّويل، رفعت رأسها الغارق بــين الجــوهر والــذّهب والتّحف النّفيسة المتكدّسة في الصّناديق الحديديّة الصّدئة، وفــي لحظات تفتّق جلدها عن فتاة بجمال أردية القمــر، كانــت فتــاة تستدعي بجمالها سنوات حرمانه، رأى في عينيها اشتهاءً له لــم ترَ عينه اليتيمة مثله طوال حياته، فعيــون الجمــيلات لا تلمــح الرّجال البسطاء الفقراء.

كانت متدثّرة بملابس شفّافة، سرعان مـــا أخـــذت تلـــك الملابس تتطاير مع كلّ ترنيمة من ترنيمات اليهوديّ، كان فـــي عينيها خوفٌ ورعبٌ وهي تصرخ: "يا عم استر علي، اللّه يستر عليك، يا عم كلماتك تعرّيني من ملابسي، استر علي اللّه يـــستر عليك . . . اللّه يستر عليك".

صوت رجائها المخضوب بدموعها كان يمـــلأ الكهـــف دون أن يصيب اهتماماً أو مبالاة عند اليهوديّ الذّي كان مستمرّاً في ترقيص رأسه على ترانيمه وطلاسمه السّحريّة. أمّا عـــزّوز فكانت عينه تراقب بخجل وعطف الفتاة الجنيّـــة التّـــي تـــصرخ عارية طالبةً للسّتر، كاد يرجو اليهوديّ ليكفّ عن طلاسمه، لكنّه كان يعلم أنّ في كلماته الموت.

واستمرّت الملحمة . . . اليهـــوديّ يحـــرق بترنيماتـــه وطلاسمه الفتاة، والكنز يقترب منهما، وعزّوز يحتـــرق شـــوقاً لإنقاذ الجنية التّي بدأت بالتّوسّل إليه قائلةً: "أنقذني يـــا عـــزّوز، استر علي اللّه يستر عليك . ."

لكنّ عزّوز صمّ أذنيه عن رجاءاتها ودموعها، وإن كان قلبه يتفطّر لذلك إلى أن قالت الفتاة، وهي تكتوي بالسّحر الـــذّي تسمعه: "عزّوز أنا أحبّك، انتظرتك منذ ألف عام، استر علي اللّه يستر عليك".

لأوّل مرّة يسمع امرأةً تقول له أحبّـــك، طـــوال تـــاريخ حياته المجدبة لم تحنّ امرأة عليه، وأيّ امرأة؟ امـــرأة الرّصَـــدْ. نظر عزّوز باضطراب إلى اليهوديّ المستغرق في مـــا يقـــول، وقال له بانفعال: "كفاك . . . استر عليها . . . أنا أحبّها". التفت إليه اليهوديّ بسرعة مرعوباً من كلماته التّي خالف بها وصيّته، في لحظات كان اليهوديّ رماداً منثوراً في المكان.

وكادت لعنة الرّصد تحيل عزّوز إلى الرماد أيضاً، لكـــنّ الجنيّة الأفعى عشقت في عين عزّوز شيئاً لم تره من قبـــل فـــي عين إنسيّ، مدّت يدها العاجيّة إليه، واختطفته بعيداً حيث مملكة الجان، ومن جديد أُقفل باب الكهف على الرّصد.

امرأة استثنائيّة

"أنا امرأة تملك موهبة نادرة، اقتربوا لأخبركم عن موهبتي، اقتربوا أكثر، لا، هذا أكثر مما يجب، تراجعوا خطوة إلى الوراء، نعم، هذا مناسب، ألم أقل لكم إنّني موهوبة، ها أنتم قد أدركتم موهبتي قبل أن أفصح لكم عنها، أنا امرأة قادرة على أن تحرّر المأسورين من أسرهم، قادرة على أن تبعث الحياة في القلوب الميتة، قادرة على أن ترسم الارتعاش على الشفاه الميتة، رجاءً تراجعوا جميعاً، وابقَ أنت بالذات، قل لي ماذا تحبّ أن أسميك؟ تعال، اقترب أكثر".

يقترب التّمثال الصّخري الذّي قُدّ لتوه من جداريّة صخريّة كبيرة، تضمّ تماثيلَ كثيرة لشباب رومان صغار السّن مطوّقين بالغار، نظر إليها بعينيه اللتين عرفتا الحياة لتوّهما، فقد تحوّل بلحظات من تمثال صخريٍّ في جداريّة صخريّة ثلاثيّة الأبعاد، تسكن وسط المدينة القديمة من آلاف السنوات إلى شابٍّ من لحم ودم وربما قلب، من يدري!

لم يستطع أن يقدّر أنه محظوظ دون التّماثيل الأخــرى بهذه الهبة، ولم يفكر كذلك أنّى لهذا التّحوّل أن يحدث، ولم يعنه أن يبحث عن تفاصيل ذلك التّحوّل وعن طرقه ، لكنّه كان يشعر بالسّعادة؛ لأنه تحرّر من سجنه الصّخريّ الذّي كرهــه، ليغــدو شاباً عصريّاً يطوّف في الشّوارع بملابسه القديمة، مــن جديــد اقتربت منه المرأة ذات القامة القصيرة حدّ التقــزّم، والملامــح الشّوهاء، والعينين اللاّمعتين، وقالت له: "كلّما نظرت إلى شــيءٍ جميل، دبّت فيه الحياة، ألم أقل لك إنّني أملك موهبة استثنائية".

ابتسم التّمثال الرّجل المطوّق بالغار، وطبع على جبينها الضيّق الأشوه قُبلةً دافئة، ومدّ يده، وحضن كفّ يدها، وانطلقا يجوبان المدينة، حدّثها طويلاً عن المدينة، ولكن بذكريات عمرها آلاف السّنوات، راقصها في المعبد القديم الذي يتربّع على أعلى تلاّت المدينة، صرّخ بأعلى صوته في المدرج الأثريّ القديم: "أنا أحبّك". فردّدت ردهات المدرّج كلماته، ابتسم السوّاح الذين يزورون المكان، وظنّوه يلبس ملابس تقليدية من باب التّندر، أو أنّه من موظفي المكان، التقطوا له عشرات الصّور التذكاريّة.

أما هي، فكانت في غاية السعادة، كان فمها الأشوه الصغير يندي بسعادة غريبة لم تألفها في حياتها المعيشة، كانت استثنائيّة في كلّ شيء، استثنائيّة في جسدها القزم، في ملامحها المتجمّدة على ابتسامة مهرّج، في تجاعيدها المخيفة، في قدرتها على الرّسم، في موهبتها على تحرير كلّ المساجين من سجنهم، لكنّها كانت على الرّغم من ذلك عاجزةً عن أن تتحرّر من جسدها المخيف، حتّى عندما أشعلت النّار فيه لتهرب منه، لم تستطع أن تنقذ روحها منه، وبقيت حبيسة داخله، فضلاً عن اكتسابها جلداً محروقاً مجعّداً كجلد وزغة في مستنقع.

لم تجد عالمها في أيّ مكان، لــذا خلقتــه مــن بنــات أفكارها، اعتادت أن تغادر بيتها في كلّ صباح، أن تغيب عنه ما استطاعت ذلك، ما دام غيابها يسعد كلّ من فيه، فلا أحد يرغب في القصيرة ذات الجلد المجعّد.

في البداية كانت تشعر بوحدة قاتمة، كانت تتنحّى في الزّقاق المظلمة، والشّوارع غير المطروقة، لكن عندما اكتشفت موهبتها العجيبة، عادت الحياة إليها، أو عادت هي إلى الحياة، كلّ ما عليها هو أن تنظر إلى أيّ رجلٍ أكان صورةً على

غلاف، أم تمثالاً في شارع، أم صوتاً في الأذن، أم حتّى صورة في الذّهن، فيتجسّد أمامها حيّاً، ينبض بالحياة، رجلاً لا يعنيه شكلها الحزين، ولا جلدها المقيت، بل تعنيه عيناها الدافئتان وقلبها الطّيب، تعيش معه أحلى اللّحظات، تقبّله في الشّوارع، تطارحه الغرام في الجبال، تأكل معه في الحوانيت الشّعبية، تراقصه على ضوء الشّموع في مقصورة بلورية في القمر.

مرّة أخرى ردّد الرّجل التّمثال: "أحبّك"، فردّد المدرّج كلمته، أنشد أغنية رومانيّة قديمة، لم تفهمها، لكنّها قدّرت بقلبها أنّها أغنية صاغها عاشق لحبيبة في لحظة ما، انحنى عند قدميها كمن يركع، وتناول جسدها الصّغير بين يديه، ودار بها بسعادة، وأخذ بتقبيلها، السوّاح كانوا حائرين ،أيصورون الوسيم العاشق؟ أم المعشوقة المسخ؟ في النّهاية قرّروا أن يصوروا كليهما، وإن كان من المتعذر لكاميراتهم أن تلتقط العاشقين لسرعة حركتيهما.

تحت ضوء القمر، وبعد عشاء تقليديّ في حانوت شعبيّ، عاد الرّجل التّمثال ليأخذ مكانه في الجداريّة الصّخريّة، في لحظات عاد إلى حياته الصّخرية، ودّعته بحزن، كانتْ

تعرف طقوس الألم تماماً؛ لأنها اعتادتها، للدّقة لم تعتد غيرهـــا، ومن جديد عادت إلى الوحدة، ولكنّ غداً قريب، وفي انتظار غدٍ آخر اندسّت كدودة مستنقع رخوة في فراشٍ حقير أعدّته عائلتهـــا لها، بعد أن ضاقت ذرعاً بمظهرها القبيح.

في الصّباح كانت تتأمّل في صورة لفتىً وسيم، كانـــت قد علّقت على لوحة قديمة في آخر الموقف المهجور، تمنّـــت أن يكون حقيقة، اقتربت من صورته، وهمست بدفءٍ وبكـــل حـــبّ الدّنيا قائلة: "أنا امرأة قادرة على تحرير المأسورين من أسرهم، قادرة على أن ترسم الارتعاش على الشّفاه الميتة، قادرة على أن تبعث الحياة في القلوب الميتة، أنا امرأة استثنائية، اقترب مني".

ومن جديد دبّت الحياة في الفتى الصّورة، ومرّة أخـــرى عاشت قصّة حبّ رائعة ليوم طويل مع شـــابّ فـــاتن، تجـــاوز جسدها وتجاعيدها. وفي مكان ما في المدينة كـــان ســـائحٌ مـــا يصرخ مذعوراً؛ لأنه حمّض صورة التقطها البارحـــة لـــشابّ وسيم وامرأة شوهاء في مدرج أثريّ، ليجـــد صـــورة لامـــرأة شوهاء وفضاء فارغ لا وجود لشابّ فيه، ولكنّه لم يعرف أبـــداً أنه التقط صورة لامرأة استثنائية . . .

قطار منتصف اللّيل

"بقيت نصف ساعة ،ويقبل قطار منتصف اللّيل" عزّت نفسها قائلة. كانت اللّيلة باردة أكثر مما تحتمل، وهي لم تأخذ الاحتياطات لذلك، فلم تلبس مثلاً معطفاً دافئاً؛ لأنّها لم تكن تتوقع أنّ أحداث اليوم السّاخنة ستسوقها لتجد نفسها وحيدة، تجلس في أحد مقاعد المحطّة القديمة، تنتظر رجلاً لتمنع كارثة، كيف سيبدو الرّجل؟ لا تعرف. ماذا يلبس؟ لا تعرف. كلُّ ما تعرفه أنّه سيحمل باقة زهور حمراء في يديه حسب الاتّفاق.

من جديد شعرت بالبرد يهاجم جسدها الوردي الصّغير، غارتْ في سترتها القطنيّة ذات الأكمام القصيرة، راقبتْ بطنها الغائر، تحرّكت أمعاؤها بتململ، فتذكّرت أنّها لم تذق لقمة طعامٍ منذ الصّباح، ومن يستطيع أن يأكل وهو يشعر بكلّ هذا الارتباك؟ ويحار في الطّريقة التّي يمكن أن يعالج بها الأمور دون ألم؟ ولكنّ ذلك القادم في قطار منتصف اللّيل، ما ذنبه في ما يجري؟ ماذا ستقول له؟ لعلّ من الأفضل أن تقطع له تذكرةً ليعود من حيث أتى، وهكذا لن يكون له مبرّر للبقاء؟ أعادت

النّظر في قرارها الأخير ، فوجدته سخيفاً، فهو في النّهاية إنسانٌ له قراره وشعوره وشخصيّته، ولعلّه سيستاء مما يحدث؟ ابتسمت ،وحوقلت قائلة: "بالتّأكيد سيستاء إن كان في داخله ذرّة إحساس".

فكّت يدها اليمنى عن اليسرى التّي تضمها إلى صدرها، لعلّها تشعر بشيء من الدّفء، نظرت إلى ساعتها، كانت الشّعرات الشّقراء القليلة التّي تتوزّع على أديم يدها تنتصب مستنفرةً من شدّة البرد، بقيت ربع ساعة فقط، ويكون القادم قبالتها تماماً، من مكانها هذا تستطيع أن تتفرّس في وجه كلّ قادم ينزل إلى المحطّة، ارتعدتْ عندما سمعتْ صوت نباحٍ في البعيد، تذكّرت أنّ منزل المغتربات الذّي تسكنه قد أقفل أبوابه منذ ساعتين، وهكذا لن يكون أمامها إلاّ أن تبحث عن فندقٍ قريب تقضي فيه ليلتها، ألا يكفيها أنّها تسكن بلدةً بعيدةً عن أهلها سفر ساعات طويلة من أجل لقمة العيش لتنزل أيضاً في فندق؟!

من أمامها مرّ أحد حرّاس المحطّة بمشيته العسكريّة المنتظمة، كان ينظر في ساعته القديمة المربوطة بسلسلة فضيّة

تمتد حتّى جيبه، بقيت عشر دقائق ،ويـــأتي القطـــار، شـــعرت باضطرابٍ شديد، فجأةً تذكرت أمّها، لطالمـــا نعتتهـــا بالطيبـــة الغبيّة، التّي تتسرّع وتتدخّل في ما لا يعنيها، ضـــربت صـــفحاً عن صورة أمّها التّي ارتسمت في ذهنها، وعادت ترتّـــب مـــن جديد الكلمات التّي عليها أن تقولها للرجل القادم في القطار.

شعرت بأنّ الكلمات انصهرت في حجرات دماغها، وأنّها تملك قصصاً كثيرة ذائبة باضطراب، حاولت أن ترتّب قصصها وكلماتها من جديد، لكنّها وجدت نفسها تتنفّس بصعوبةٍ أمام دفق الكلمات والقصص. ما عليها أن تقول؟ هل تستقبله ثمّ تدعوه إلى مقهى المحطّة لتخبره بما يحدث؟ أم تلقي الكلمات في وجهه دون انتظار؟ أم لعلّ من الواجب أن تعرّفه على نفسها ابتداءً؟

ارتاحت أكثر إلى فكرة أن تعرّفه على نفسها، فمن المناسب أن يعرف سبب وجودها في هذا المكان، ومن تكون؟ وأين الفتاة التّي من الواجب أن تكون في انتظاره. ستخبره بكـــلّ صـــراحةٍ بأنّ فتاته لن تحضر؛ لأنّها مراهقةٌ صغيرة ادّعت أنّهـــا طالبـــة جامعيّة؛ لتلهو معه، ومن ثمّ وجدت نفسها متورّطة فـــي قـــصّة

حبّ مع رجلٍ ما، ستقول له إنّ فتاته لا تحبّه، بل كانت تريد أن تلهو وحسب، وهي الآن نادمة، وترجو أن يقبل اعتــذارها، وإن كان قد جاء مُتأخّراً.

ماذا ستقول له أيضاً؟ نعم، ستقول له إنّها معلّمــة تلــك المراهقة الشّقيّة، وإنّها اطّلعت على الموضوع بحكــم علاقتهــا الطّيبة مع كلّ تلميذاتها في المدرسة الثّانوية، اللّــواتي تحــبّهنّ بشدّة، ويفضين إليها بأسرارهنّ، وإنّها اطّلعت اليوم فقــط علــى تفاصيل هذه اللّعبة السّخيفة التّي مارستها طالبتها عبــر علاقــة طّويلة على الإنترنت، وأنّها قد شعرت بالخطر عندما عرفت أنّ الرّجل الذّي يحبّها، ويتصوّرها امرأة ناضــجة، قــادمٌ ليقابلهــا، ستقول له إنّ المراهقة خائفة جدّاً، وتخشى غضب والديها إذا ما عرفا أكاذيبها، كما تخشى من أن تُحرم إلى الأبد من اســتخدام الإنترنت الذّي تمضي ساعاتٍ طويلة تراسل عبره الكثيــر مــن الأشخاص في أصقاع مختلفة في الدّنيا.

نعم ستقف أمامه، وتمدّ يدها مصافحةً له، ومعتــذرةً عــن سلوك طالبتها الطّائشة، وترجوه أن يقبل الاعتذار، وماذا تفعــل بعد ذلك ؟لا تدري. من جديد طالعت السّاعة، بقيت خمس دقائق

ثمّ يكون لزاماً عليها أن تنتصب لتستقبل رجلاً تشعر بالخجل منه قبل أن تراه، وتحاول أن تصطنع ابتسامةً تبتدره بها، ولكنّها تفشل في ذلك.

وصل القطار . . .جلبته وصفيره الجريئان يشقّان اللّيل، حرارته تصكّ وجهها الذّي كاد يتجمّد من البرد، تفكّر بالانتصاب، لكنّ التّوتّر يمنعها من ذلك، تبحث في حقيبتها باضطّرابٍ عن لا شيء، تفكّ قدماً عن أخرى، تعتدل في جِلستها، يزداد وجيب قلبها، تتمنّى لو أنّها الآن في انتظار رجلٍ يخصّها هي، كم حياتها ضيّقة دون رجلٍ تحبّه ويحبّها!! كان مخطّط طفولتها أن تقابل رجلاً يعشقها وتعشقه دون توقّف، لكنّها وجدت نفسها بدل ذلك تُطعم شبابها للسّنين كي تزوّد عائلتها المتواضعة بما تحتاج إليه بعد أن أصبحت ذخيرتهم الوحيدة في هذه الدّنيا، هي لا تراهم كثيراً بحكم عملها البعيد، ولكنّها تحبّهم جداً، لكنّها لا تزال صغيرةً وشابّة جميلة، ومن حقّها أن تعيش سعادة قلبها، لكنّها في الوقت نفسه قليلة الجرأة، تحتاج إلى رجلٍ يخطفها، ويقيّدها في قلعةٍ ما، ويجبرها على حبّه، فهي تخشى الحبَ، وإن كانت تتمنّاه.

يبدأ الرّكاب القلّة الذّين يستقلّون القطار بمغادرته بتؤدة، الكثير منهم تبدو عليه إمارات النّعاس والكسل، تراقبهم جميعاً، وتبحث عن باقة الزّهور الحمراء التّي اتّفقت طالبتها دلال والرّجل على أن تكون وسيلتهما للتّعارف، يكاد سيل القادمين ينقطع، والباقة والرّجل لم يطلاّ، أتراه لم يأتِ؟ لعلّه هو الآخر كاذب، ولن يأتي أبداً، تتمنّى أن يصدُق تخمينها، ويزداد انفعالها، وبتمتمةٍ هادئة ترجو اللّه أن يتحقّق تخمينها.

لكنّ باقة الزّهور الحمراء تطلّ أخيراً، وهي تمتطي صهوة أشواق رجلٍ في منتصف الثّلاثينيات يلبس معطفاً عسليّاً، يُظهر من تحته بذلةً أنيقة وجسداً شبه ممشوق، على وجهه ابتسامة رائعة وهادئة تشبه هدوء اللّيل الذّي جاء يشقّه، تنتصب بصعوبة، تخطو خطوة في اتّجاهه، لكنّ خطواته تسبقها، دون وعي تجد نفسها تعدّل هندامها، تضطرب أكثر وأكثر، يقترب منها، يصافحها، ويقول لها: "ألم أقل لكِ إنّي سأعرفك؟ دلال هذه الزّهور لك."

تمتدّ يداها بارتعاش، تحتضنان الزّهور، تــشفقان علــى جمالها، وعلى رقّة صاحبها، تكاد تقول له إنّهــا ليــست دلال، ولكنّها تستعذب النّظرات التّي في عينيه، وتجد صعوبة فــي أن تقتل هذه اللّحظات السّاحرة، هي تحتاجه، وهو جاء يبحث عــن الحبّ، ولم يشترط المرأة، وطالبتهــا المراهقــة لا تريــده، إذن فالمعادلة سهلة، لِمَ لا يكون لها؟ لعلّ القدر هو من ساقها إلى هذا المكان دون سائر أماكن الدّنيا، لتجده وليجدها .

تبتسم، وتقول له: "أنتَ تماماً كما تخيّلتك". يقول بإثــارةٍ ذكوريّة ساحرة، وهو ينحني نحوها: "وأنتِ أجمل مما تخيّلــت. "تشتمّ رائحة الزّهور، يمدّ يده ليداعب خدّها البارد، يقول وكأنّــه يألفها منذ أن كانا صغيرين: "أنا جائع، وماذا عنك!" تهزّ رأســها بدلال، وتقول: "وأنا أيضاً جائعة، لــم آكــل بعــد، كنــتُ فــي انتظارك".

يطوّقها وباقتها بذراعه القويّ، ويجذبها نحــو جــسده، وينطلقان سيراً على الأقدام إلى أقرب مطعم في المدينة، وهدوء اللّيل يردّد ضحكاتهما . . . تقول له: "لقد كذبتُ عليــك، اســمي منى، وليس دلال". فيضحك بهستيريّة ، ويقول لها: " وأنا كذبتُ

عليكِ كذلك ، فاسمي رشاد، وليس علي" . . . من جديد تتعـــالى ضحكاتهما، وإن طغى عليها صوت قطار منتصف اللّيل الـــذّي غادر المحطّة في رحلةٍ جديدة . . .

تحقيق صحفي

هي تكره الصّحراء؛ لأنّها تشبه قسوة حياتها، وتكره أنّها مضطرّة إلى أن تتجشّم رحلةً طويلة في صحراء لا تعرف نهاية، وتبتلع الآهات والبشر والرّغبات؛ لتجري تحقيقاً صحفيّاً عن بدو الطّوارق في ديارهم، عزاؤها الوحيد أنّ هذا التّحقيق سيدرّ عليها مبلغاً جيّداً من المال، إذ إنّه سينشر في مجلّةٍ فرنسيّة مشهورة تراسلها منذ سنوات، وهي الآن في أشدّ الحاجة إلى المال لتسديد فواتير المحامي الموكّل بقضيّتها.

وصلت إلى أرض تيغمار في الصّحراء العربيّة متأخّرة عن الموعد المحدّد لذلك، بسبب مشاكلها المؤجّلة مع زوجها في العاصمة، وبذلك لم يعد أمامها إلاّ أيّامٍ أربعة فقط لتجري تحقيقها، وبخلاف ذلك ستكون في وضعٍ حرج، وستضع المجلّة في أزمة بعد أن خصّصت مكاناً كبيراً لتحقيقها المُنتظر في عددها المقبل.

شاليفه كانت المرأة الأولى التّي قابلتها من الطّوارق، بعد أن وصلت إلى قلب الصّحراء بسيّارة قديمة من الواضح أنّها

اعتادت أن تخترق الرّمال بأريحيّة، قيل لها إنّ الـزّعيم الـدّينيّ المحليّ المسمى بسيدي الطّالب رجـب هـو مـن أمـر بـأن تُستضاف، وأن تنزل في الفندق الوحيـد المتواضـع الموجـود بالقرب من مضارب عشيرته في الواحة، فهو لم يتوقّع بأيّ حالٍ من الأحوال أن تُسعدها الإقامة الدّائمة في خيم الطّـوارق، لـذا أمر أن يُحتفى بها في المبنى القديم ذي الطّابق الواحد، والغرف الستّ.

عندما وصلت إلى الفندق كـان جـسدها دبقـاً محمّـلاً بالعرق والرّمال، تمنّت أن تنزلق في بحيرةٍ بـاردة، وإن كـان يرضيها الآن حمامٌ باردٌ، ولكن حتّى ذلك كان متعذّراً، فقد كانت المياه مقطوعة، ولم تُقدّم لها إلاّ بضعة لترات من الماء لتقـضي كلّ حاجتها بها.

بدت متبرّمةً فضوليّة، وهي تسأل شاليفه عـن حياتهـا، وعن الصّورة الاجتماعيّة لامرأة الطّوارق، وإن كانـت معنيّـة بالانتهاء من التّحقيق الصّحفي لتقفل راجعةً إلى العاصمة أكثـر من الوقوف طويلاً عند حياة أفرادٍ تظنّ أنّهم في هكذا مفازةٍ قـد يقدّمون حياة ناقةٍ جرباء على حياة امرأة.

لم تكن تجيد غير العربيّة والفرنسيّة، وكان الوسيط المقرّر وجوده معها قد تبخّر بعد أن تأخّرت عن موعدها معه في مطار العاصمة، كانت تخشى أن تقع فريسة للمهاجرين النيجريّين الذّين يدعون أنّهم من الطّوارق، ويقدّمون معلومات مضلِّلة لكلّ من يشتريها من السوّاح والفضوليّن، شاليفه أخبرتها أنّ سيدي الطّالب رجب يجيد العربيّة الفصحى شأنه في ذلك شأن المثقفين أو المتعلّمين من الطّوارق، خروجاً على غالبيّة الطّوارق الذّين لا يجيدون غير لهجتهم المحليّة.

ارتحلت على جملٍ أورق مع جماعةٍ من الطّوارق صوب قوم شاليفه، كان الطّالب رجب هو مقصدها، وفي طريق مقصدها لم تنسَ أن تستمتع بحُداء رجال الطّوارق الذّين يتغنّون بصحرائهم، كانت أعينهم السّفير الوحيد بينهم وبين نسائهم الممشوقات القوام، السّمر البشرة، الجميلات العيون، عرفت كلّ واحدٍ منهم من عينيه؛ إذ إنّ أحدهم لا يميط لثامه أبداً، في حين تسفر النّساء عن وجوههنّ المشرّبة بحُمرة شمس الواحات.

وأخيراً وصلت جماعتها إلى واحةِ تيغمار، كانت النّظرات الفضوليّة في انتظارها، وكان الشّاي الذي يصنعه

الطّالب رجب الذّي تفوح منه رائحة نبتةٍ بريّــة مــشهورة فــي الواحات هو أوّل من استقبلها، مالت شاليفه باتّجاهها، وهمــستْ في أُذنها قائلةً: "عمل الشّاي، ونصب البيوت، والقيام بالأعمــال المنزليّة الصّعبة، ونقل الماء هو من وظائف رجال الطّوارق".
همستْ متسائلةً: "وماذا عن النّساء؟ ماذا يفعلن؟"
قالت شاليفه بدلال ذي مغزى: " يُعشقن بقوّة".

بعينيها بحثت عن الطّالب رجب، تفرّســتْ فــي تلــك العيون ذات الأجفان المتهدّلة والحواجــب الكثيفــة، والتّجاعيــد المرتسمة على امتداد أسفل العيون، التّي تبزّ من فــوق اللّثــام، ولكنّها لم توفّق في معرفته، وتساءلت أيّ الرّجال هو؟

كانت تشرب الشّاي ذا الرّائحة النّفاثة الذّي قدّمته لها إحدى فتيات الطّوارق الصّغيرات، عندما تقدّم رجلٌ منها، وأماط لثامه، مبرزاً وجهه ذا القسمات الحادّة، والفكّ البارز، والعينين اللاّمعتين كعيني صقر، كان جسده رفيعاً كخيزران نامٍ على ماءٍ جارٍ، وخصره نحيل، وصدره مندفعٌ إلى الأمام، كان من السّهل أن ترى بروز ترقوتيه، عندما دنا منها لتحيّتها حجب بقامته الممتدّة ذبالة المصباح الذّي يضيء وجهها، فغرق وجهها في

ظلامٍ قمري، لم يكن من الصّعب أن يرى فيه قسماتها الوادعة السّاحرة.

لم يكلّمها كثيراً مع أنّه أبدى احتفاءً بوجودها، ولكن يبدو أنّ مسؤوليّاته كانت غير محدودة، رافقته ليومين كـــاملين، فـــي البداية كان مرافقوها كثيرو العدد، ثمّ تقلّص عـــددهم، لتـــصبح جماعتها هي وإيّاه فقط والكاميرا، أخذت صوراً لكلّ مكان حتّى لخيمته المتواضعة التّي انتقلت إليها بعد أن هجرت الفندق الـــذّي نزلت به في بداية الزّيارة بحجّة أنّه بعيدٌ عن الواحة، وأصبحت في أقرب نقطةٍ من الطّالب رجب، تحديداً فـــي خيمتـــه، التّـــي سرعان ما شعرت بأنّها تسكن هي الأخرى مع صاحبها في قلبها الذّي كان يقرع بشدّة ودون إرادةٍ لذلك البدويّ الأســـمر، الـــذّي يعيش لأجل الآخرين، ويحبّ الآخرين،فيردوّن حبّه حبّاً.

كانت تخشى أنفاسه في اللّيل مع أنّه كان ينـــام خـــارج الخيمة احتراماً لوجودها، ليس لأنّها كانت تخشى أن تمتـــدّ يـــده إليها، فهي تعرف أنّ الاغتصاب لا وجود له عند الطّوارق، بـــل لأنّها كانت تتمنّى أن يندسّ في فراشها، يتعبها بعده عنها مع أنّ أمتاراً قليلة تفصلها عنه.

كانت حفلة التّندّي هي أوّل حفلة حــضرتها، اســتعارت لباساً تقليديّاً من شاليفه، ولبسته، فكانت أجمل النّساء فــي تلــك الحفلة على الأقل في عينيّ الطّالب رجب، وقد كرّمتها النّــساء بأن جعلنها أوّل من تضع المكياج، وتقلّد الحليّ الفــضيّة للفتــاة اليافعة التي أقيمت حفلة التّندّي للإعلان عن أنّها قــد وصــلت مرحلة الطّمث، وأصبحت في عداد النّساء لا الطّفلات، وأنّ من حقها أن تحبّ، وأنّ تتزوّج مرّة وثلاث ومئة ما دامت تحبّ من تتزوّجه.

تمنّت لو أنّ حفلةً ما تقام لها لتعلن عن أنوثتها للطّالــب رجب . في طريق العودة أبدت رغبتها بقضاء حاجة، انحرفــت هي والطّالب رجب كثيراً عن الطّريق لاتخاذ مكانٍ قصيّ لقضاء حاجتها ، غابتْ برهات ثمّ عادتْ، كان في انتظارها مع أنّه كان يبدي انشغاله بمزماره الخشبيّ، اقتربت منه، وقالــت: "ســيّدي الطّالب أليسَ لكَ حبيبة؟"
ابتسم ، وقال لها كمن يتذكّر فراشةً ذهبيّة: "كــان لــي حبيبــة وزوجة."
قالت باهتمام: "وماذا حدث لها؟"
قال بلا مبالاة: "رحلتْ مع رجلٍ آخر بعد أن طلّقتني."

قالت بدهشة: "وهل تطلّق امرأة الطّوارق زوجها، وترحل مع آخر؟"

قال، وكأنّه يقرأ من كتابٍ يحفظ كلّ ما خطّ فيه: "الطّوارق يدينون لقانون القلب، عندما يتوقّف الحبّ لا يعود هناك مبرّر للاستمرار، يطلّقون أزواجهم، ويتزوّجون ممّن يحبّون، دون تثريب، ويستمرّون في حياتهم."

قالت بأسى: "وماذا عنك؟"

أجاب: "أنا على ما يرام، أنا ربيب أُناسٍ يؤمنون بالحبّ، وأرى أنّ توقّف حبّها لي سبب كافٍ لأن ترحل!"

سألته بفضولٍ تحاول أن تخفيه: "وإلى أين رحلت؟ هل اختفت في الصّحراء؟"

قهقه الطّالب رجب ،وقال: "بل رحلت إلى الخيمة التّي إلى جوار خيمتي، أحبّت جاراً لي، فطلّقتني، وتزوّجته."

من جديد سألته بدهاء تحاول أن تخفيه: "وأنتَ ؟ ماذا عنك؟"

قال بارتياح وعذوبة: "أنا لا أزال أنا، أتفرّغ لشؤون القبيلة، أطلّق هذا من هذه، أزوّج ذلك من تلك، أنا قاضي الغرام في هذه الصّحراء، وحكمي دائماً لصالح القلوب العاشقة.

كلمة الحكم ذكّرتها بآلامٍ لا تبارحها، تذكّرتْ ذلك الزّوج الذّي يسنّ أسنانه، ويخلع بذلته ذات الماركة العالميّة الشّهيرة ليتصدّى لها ببدن وحش، يأكل جسدها، ويسرق شهوتها، ثمّ يوسعها ضرباً وإهانة، تخيّلت وجهه في كلّ مكان، أخذ قلبها بالخفقان، وتمنّتْ لو أنّ القضاء يهبها حكم شنقه بدلاً من حكم الطّلاق منه الذّي تناضل لأجله منذ سنوات.

غارتْ أنوثتها في جسدها البضّ، وخالتْ القيء يمتدّ حتّى أعلى حلقومها، بدا التّعرّق واضحاً أسفل عينيها، كانت قبالة القمر الذّي ارتسم ضياؤه على صفحة وجهها المتعكّر بذكرياته، اقترب الطّالب رجب منها، وقال بتوجّس: "هل أنتِ على ما يرام؟"

أجابت بضيق: "أنا لستُ على ما يرام، أنا متعبة، دعنا نستريح قليلاً".

قال الطّالب رجب باستنكار: "هنا؟!! لا هذا غير ممكن، في اللّيالي الصّحراويّة لا تُؤمن الأفاعي والعقارب السّامة".

قالت بتوسّل: "أنا متعبة، أرجوك".

قال الطّالب: "أمّا هذه ، فحلّها سهل".

واستراحت، ليس على حجرٍ في الصّحراء، بــل علــى كاهل الطّالب الصّحراوي الذّي حملها كطفلة مدلّلة، وقطع بهــا طريقاً طويلة، وهي غارقةٌ في حلمها الوردي، عندما اقترب من خيمته، وهمّ في الدّخول إليها لمحتــه عيــون نــسائيّة كثيــرة، وهمست بسعادة: "الطّالب رجب لا شكّ واقعٌ في الغرام".

ومضى أسبوعٌ والتّحقيق الصّحفي لم يُكتب بعد، بــل إنّ الأوراق والأقلام قد اختفت، ولم تعد الصحفية تعرف لها مكاناً، وما كانت لتبالي بذلك، فقد أضاعت أوراقاً لتجد نفسها، وصــلتها برقيّة على جناح السّرعة تنقل احتجاج المجلّة وغضب رئــيس تحريرها بسبب تأخّر التّحقيق، وتأمر بسرعة الإجابــة، لكنّهــا شعرت بأنّ البرقيّة ليست موجّهة إليها، بل لــصحفيّة مــشهورة تُضرب ليلاً من زوجٍ همجيّ، تلك الــصحفيّة اختفــت منــذ أن دخلت إلى تيغمار، أمّا هي فتــشعر بأنّهــا امــرأة بدويّــة مــن الطّوارق تنعم بالحبّ والحريّة والاحترام.

كادت تفكّر بالرّد على رئيس تحرير المجلّة بالاعتذار، ولتستميحه عذراً بالمزيد من الوقت إلى حــين انتهــاء عملهــا،

ولكنّها كانت مشغولة بحفلة طلاق تقيمها ثلاث أخواتٍ في الواحة.

كعادة الطّوارق أُقيمت الولائم المتواضعة، واجتمعت النّساء والرّجال على ضوء النّار الموقدة، كانت النّساء اللّواتي ينوين الطّلاق في أبهى ملابسهنّ، إذ سيُطلّقن اللّيلة، وستُقدّم لهنّ الهدايا التّي ستوزّع جميعها على فقراء الواحة الذّين جاؤوا يطلبون الصّدقات والبهجة، كما احتشد الكثير من الرّجال في المكان، فهكذا حفلة تعني أنّ المطلّقة قد تبرّأت قانونياً وشرعيّاً من زوجها، وأنّها على استعداد للارتباط مع غيره بمجرّد أن تنتهي عدّتها.

كان الطّالب رجب من أهمّ أركان حفلات الطّلاق، فهو الزّعيم الدّينيّ المحلّي الموكّل بقضايا الزّواج والطّلاق والإرث، كلّ واحدةٍ من الأخوات تقدّمت إليه على ركبتيها، وأعلنت رغبتها بالطّلاق،فوهبها رغبتها، وأبلغ زوجها بذلك وسط زغاريد الفرح التّي تطلقها قريبات وصديقات المطلّقة.

وانتهى الحفل، وثابتْ إلى فراشها في خيمة الزّعيم، الذّي كان من الواضح أنّه قلقٌ لسبب ما، يساهر ناره في الخارج، ويلاعب جمراتها بعصا يمسكها بيده اليمنى، لبست ثوباً تقليديّاً من أثواب الطّوارق، ووضعت مكياج نساء الطّوارق، واتّجهت إلى خارج الخيمة حيث يتوسّد الطّالب رجب حجراً أملسَ صغيراً، جثت على ركبتيها بين يديه، وقالت له بنبرةٍ كسيرة وصادقة: "سيّدي الطّالب رجب، أنا أحبّك، وأكره زوجي، طلّقني منه، وزوّجني منك . . ."

نظر الطّالب رجب إليها نظرة المغشيّ عليه، شعرت من انفعال نظراته، ومن توهّج ناره فيهما بإنّه لا يملك قوّةً ليجيب، وبعد إعياءٍ قال بمشقّة: "ولكن. . ."

غرقتْ في هائج عينيه ،وقالت: "سيّدي الطّالب أنا أحبّك، وأخطبك هل توافق؟"

هزّ الطّالب رأسه ودمعة قاهرة تتوهّج في عشق عينيه، وقال: "أوافق".

فيما بعد وصلت أكثر من برقيّة من المجلّة، ثمّ انقطعت البرقيّات، في ما بعد أصدرت محكمة ما في العاصمة حكم طلاقٍ لصحفيّة ما من زوجها بعد أن ذكرتْ الصّحف اليوميّة

أنّها ضاعتْ في الصّحراء، ولم يعنِّ أحدٌ نفسه ليبحث عن امرأة عاشقة قد اختفتْ في الصّحراء في مهمّة صحفيّة.

قلب لكلّ الأجساد

توبة للمرة العشرين، أو الثلاثين، أو الخمسين، ومن يبالي؟!! حتّى ذلك الفارس اللّيلكي المسحور لا يبالي، أحبّته قبل ساعات أو سنوات أو قرون، لا تعرف بالتّحديد، لكنّ حبّها له يصلح أن يسمّى حقبة العشق في تاريخ البشرية، عندها كانت طفلة في إهاب المراهقة، وكان شيطاناً في إهاب رجل، وهبته نفسها دون أدنى تفكير، فهي هبته من الله، هي ملكه، هي هو، ليلتها عجب وقد أطفأ بها صهيل خيوله البريّة أنّى لفتاة متديّنة جداً أن تقبل على شيء اسمه خطيئة، عندها ضحكتْ بشدّة، وبكتْ بحزن؛ لأنّه لم يفهم.

وغاب الفارس، وغاب اللّقاء، وغابتْ الفتـــاة المتديّنـــة، وبقيتْ الخطيئة، وشيء ليلكي مسحور اسمه الحبّ، كم تمنّتْ أن تملك الشّجاعة لتقول له من جديد، وبعد قطيعة طويلة :"أنـــا مـــا أزال أحبّك!" كم تمنّت أن تهزم كبرياءهـــا وتعـــود إلـــى دنيـــاه الغريبة!!! التّي تتشابه فيها كلّ الموجودات، حتّى القلوب، لكـــنّ كبرياءها هزمها، وخطيئتها سكنتها.

فالقلوب الكسيرة تستكين بسهولة للانهزامات وللأحزان، لقد ملأ عليها حياتها في الماضي، لقد أحرقت ذاتها كي ترضيه، خرجت من جلدها لتدخل في جلده، كانت المرأة التّي يريدها، اندسّت في فراشه لترضيه، فهو لا يؤمن بالعذريّة، ولا يفصل الحبّ عن الجسد، آمنتْ به، وكفرتْ بنفسها، وفي النّهاية، هرب نحو فراش أُخرى، لم يستطيع أن يفصل الحبّ عن الجسد معها هي الأخرى.

في النّهار كانت تبحث عنه في كلّ الموجودات والأشخاص، بل وبين الكلمات، وفي اللّيل كانت تبحث عن جسده ولهاثه بين الأجساد، كان يفصلها عنه ساعات من السّفر وكبرياؤها وقسوته وغدره.

في البداية تسلّلتْ إلى فراش كلّ رجل ترك لها باب غرفته مفتوحاً، علّها تجده في جسد رجل آخر، لكنّ لعابهم كان بنكهة تختلف عن نكهة لعابه، شفاههم لا تملك ذات حرارة شفتيه، أنفاسهم ولهاثهم يختلف عما هو عنده، عضلاتهم رغباتهم، رجاءاتهم، سكناتهم، خلجاتهم، آهاتهم، تختلف تماماً عمّا عنده، لم تحلّق أبداً وهي عارية في حضن أحدهم كما كانت

تحلُّق معه، لم تشعر مع أحدهم بأنّها ترتقي إلى السّماوات العلا، بل كانت تشعر بالخطيئة، وتنتهي اللّيلة.

في الصباح تستحم، وتبكي كثيراً، ترمق الجسد الرّجولي العاري بتقزّز، وتغادر المكان دون رجعة، ولا تذكر سوى الخطيئة، وحفنة من ألم خرافي اسمه غياب الفارس اللّيلكي؛ ترفع يديها إلى السّماء ترجو المغفرة؛ فهي تعرف أنّ الإله وحده من يرفق بالقلوب المحترقة.

تأتيها الهدايا والنّقود والدّعوات من الذين تُسعد لياليهم، غالبيتهم من صفوة المجتمع، تتقزّز من عطاياهم، تقذفها جميعاً في سلّة المهملات، وتتفرّس ملامحها في مرآتها، لعلّها تجد بصمة رجل ما على وجهها تشبه بصمة فارسها الرّاحل، وفي البعيد تبحث عمّن أحبّت، كيف يمكنها أن تخبر الدّنيا بأنّها تبحث عن رجلها الذّي لفظها منذ زمن طويل في حضن غيره من الرجال؟!

وفي المساء، ومن جديد، تدلف إلى فراش آخر، تترك صاحبه الباب مفتوحاً لها، يصفها الرّجال بالتفاعل والاستكانة

اللّذيذة، والشّهوة العارمة؛ لذا يتعشّقونها، أمّا هي فتجد من تحبّ في جسد كلّ رجل، تغمض عينيها، ترهف حواسها، فتحلّق في سماء لامعة، ثم تسقط ليتلقّفها حضن من أحبتْ يوماً باشتهاء، عندما تفتح عينيها، تجد رجلاً غريباً، تبتعد عنه، بعد أن يقضي شهوته، وشهوتها أبداً لم تعرف القضاء، وبحثها لم يعرف نهاية.

من جديد تستغفر الله، وتسبّ الحبّ والخطيئة، كم أصبحتْ بعيدة عن ذاتها! كم أصبحت بعيدة عن التّوبة! بينها وبينهما الخطيئة ومئات الرّجال والأجساد وقلبها.

كانت تستعدّ لليلة جديدة، تلبس ملابسها بانكسار، تضع قناعاً ذكياً يغطي أحزانها يسمى مكيّاج، عطرها الفرنسي الباهض يخفي رائحة جسدها التّي لم يحفظها أيّ رجل، تكاد تغادر بيتها عندما يقرع جرس الهاتف، ترفعه دون مبالاة، تتوقع صوت أيّ رجل يشتهي جسدها، لكنّ ملايين التّوقعات تذهب سدىً عندما يتدفّق صوت رجلٍ تبحث عنه منذ زمن في كلّ مكان، يأتي صوت فارسها اللّيلكي، يقول لها بصوت متهدَّج:
"أحبّك، لنبدأ من جديد، هل أنتظرك هذه اللّيلة؟"
تقول له بنبرةٍ مزدرية لم تعرف أنّها تملكها: "كم ستدفع؟!!"

يقول فارسها بصدمة من أضاع أقمار السماء في مقامرة سخيفة:
"ماذا؟!"
تقول مرّةً أخرى بلا مبالاة: "كم ستدفع؟"

لا تسمع الإجابة، تضحك بهستيريّة، تقفل الهاتف، تدرك أنّها أضاعت الطّريق تماماً، لا تلقي نظرة كعادتها على المرآة التّي في الرّدهة قبل الخروج من البيت؛ لأنّها تعلم أنّها منذ اللّيلة شبح لا جسد له، قلب يصلح لكلّ الأجساد، في الطّريق بحثت عن نفسها في كلّ مكان، ولكنّها لم تجدها. وفي تلك اللّيلة، كانت متفاعلة ومستكينة وشهوانيّة لكنّ دون أن تبحث في جسد من معها عمّن أحبّت . . . وضاعتْ . . . وضاع الطّريق.

احكِ لي حكاية

"قلبكِ لن يحتمل المزيد ، لقد أصبحتِ يا سيّدتي عجوزاً في العقد الثّلاثين من العمر"، هذه جملة طبيب المؤسّسة التّي أعمل فيها، جملة ألقاها على عجالة مثل إلقاء حجرٍ في بركةٍ، ألقاها، وهو يبدو أنّه يتأمّل ذكرى جمالٍ في عينين قد غرب مبكّراً عند الضّحى تماماً، تفرّس للحظاتٍ في قسماتي، بدا كأنّه يقرأ رسالةً هيروغليفية، ثم ربّت على كتفي، وقد سئم اللاّ تعبير على وجهي، وقال بنبرة السّاخط بهدوء : "ارتدي ملابسك".

تقلّبتْ كثيراً في الفراش، ابتسمتْ بسخطٍ وبلا معنى، وهي ترقب عقارب ساعة المنبّه تقترب من الثّامنة صباحاً، لأوّل مرّة تشعر بأنّ هذه العقارب تربطها بلا رحمة بدولابٍ زمنيٍّ جهنّميّ، لا يفتأ يغمسها كلّ لحظةٍ في مرجلٍ من العذاب والسّخط والذّكريات. أهي خائفة من الموت؟! أهي خائفة من أن يتوقّف قلبها عن القرع إلى الأبد؟! أهي تخشى من أن تتخيّل شبح أمّها الطّيّبة العجوز يتجوّل في البيت وحيداً بائساً باكياً؟! لا

. . بل هي خائفة من أن تموت ،فتفارقه هو بالذّات، خائفة من أنّ تموت وفي النّفس حاجات.

عادتْ وابتسمتْ بسخرية من جملة "وفي النّفس حاجات" واستطاعت بصعوبةٍ أنّ تتذكّر باقي البيت، ولكنّها لم تتذكّر قائل البيت، برمتْ شفتيها، وانقلبتْ على الجهة الأخرى من الفراش، قالت بصوتٍ مرتفعٍ كأنّها تخاطب شخصاً أ مامها: "اللّعنة على ذلك الشّاعر، ما اسمه؟ واللّعنة عليكَ أنتَ بالذّات يا من أحببتُ".

أغمضتْ عينيْها، وشعرتْ بأنّها تسقط في أحضان القمر، أسدلتْ شرائط ورديّة على نوافذ الماضي الحاضر، وبلا قصدٍ منها وجدتْ نفسها تتحسّس جسدها، تداعبه بذكريات الماضي، تلعق عن ثغره الصّغير عسل الذّكريات والحبّ والعشق، قفزت برشاقةٍ نحو المرآة ذات الجوانب الذّهبيّة، تأمّلتْ بعمق كتفيها الصّغيريْن اللّذَيْن يبرزان على استحياءٍ من تحت الثّوب القرمزي، استعرضتْ بوحشيّةٍ تلك الخطوط السّوداء تحت عينَيْها ، شعرت بامتعاض، ثمّ قفزت بسرعةٍ في بركة عينَيْها الرّماديّتَيْن اللّتَيْن تعكسهما المرآة، وفي صخرةٍ بعيدة فيهما رأته يجلس هناك، يحدّق بها بنظراتٍ تشبه الماضي، اقترب منها،

قبّلها، ضمّها، هذه القُبلة وهذه الضّمة وهذه الــشّهوة، هــي مــا انتظرتْ وتأمّلتْ وتخيّلتْ. هذا الجسد ينتظرك منذ تسعة أعــوام، حتّى ذلك الزّوج لم يستطيع احتلال هذا الجسد أو احــتلال هــذا الحبّ، لقد كان قدراً ساخراً لمدة تسعة أعوام، لقد كان زوجاً في فراشي، ولكن ليس في روحي، لقد كنتُ في كلِّ ليلةٍ لكَ ومعك، كلّ ليلة تركتُ الباب مفتوحاً؛ ليدخل طيفك السّاحر، وليــضمّني بجنون.

والآن . . . أنا امرأة حرّة طليقة، تنتظر، تنتظركَ أنــتَ بالذّات، اللّعنة، أنتَ لا تعرف شكّ وحيرة وشوق وصبر امــرأة تنتظر رجلاً من ألف عام، رجلاً يندسّ في فراشــها ليــضمّها، ليزرع طفلاً في أحشائها، طفلاً يشبه رجلها بالذّات، طفلاً يعــزّ عليها أن تدفعه خارج رحمها عند الولادة؛ لأنّــه جــزء ممّــن تحبّ،وستحبّ دائماً . .

أنتَ يا من رفضتني، يا من قصفتَ زهرة شبابي، كنتَ حكيماً في عاصفة من الجنون، خفتَ أن تــرتبط مــع حبيبتــك الشّابّة، خفتَ أن تضمّها بيدَيْك العاجيّتَيْن اللّتَــيْن تفــوح منهمــا رائحة رجولة غامرة عمرها أربعون عاماً، خفتَ أن تظلم شبابي

بسنِّك الكبير وبشعرك الفضّيّ وبنظرات النّاس الرّافضة، كنتَ حكيماً في معبد الجنون، وأنا وإيّاكَ كنّا ضحايا المذبح، لقد حطّمتني بحكمتك، لا أزال أنتظركَ، تصوّر أنتظركَ، وأنتَ لم تقل لي سوى إنّكَ ذاهبٌ دون رجعة.

قطع جرس الهاتف المجنون ذلك الدّفق من الذّكريات، رفعت سمّاعة الهاتف، وقالتْ بنزقٍ غريبٍ عن طبعها: " لا . .. لن أحضر اليوم . . . بل قد لا أحضر غداً، حتّى أنّني قد لا أحضر أبداً". وأنهت المكالمة دون أيّ إضافة، أصيبتْ للحظات بوجومٍ بسبب ما تفوّهت به، لماذا فعلت هذا؟! شعرَتْ بغضبٍ شديد يشبه ذلك الغضب الذّي شعرت به عندما قال لها قبل تسع سنوات: "اتركيني يا صغيرتي، وطيري، وارقصي رقصة الحياة بعيداً عنّي مع شابٍّ مثلك، اتركيني ها هنا أذوي في هذا المكتب. أنتِ تأخّرتِ سبعاً وعشرين سنةً، جناحايَ مكسوران، ولا أستطيع الطّيران معكِ".

وتزوّجتُ . . . وكسرتُ جناحايَ بدلاً من أن أرقص رقصة الحياة . أيُّ حياةٍ ستكون دونك؟ وتطلّقتُ من (وسام)

ذلك الرّجل الطّيّب الذّي ضمّ جثماني تسعة أعوامٍ كاملة، ثمّ يأس منّي.

شعرتْ بوخزةٍ قويّةٍ في قلبها، امتقع لون وجهها، شعرتْ بجسدها يتراخى بعجزٍ على مقعد أمامها، "هل سأموت؟! لا ليس الآن، ليس قبل الوصول إلى حضنك"

ازدادت تلك الوخزة شدّةً، شعرتْ بقلبها يكاد يهفو إلى التوقّف، أسدلتْ عينَيْها، غمرها دفء الشّمس المتدفّق من النّافذة، شعرتْ بدفء قلبه وحبّه، شعرتْ به يحضنها ،ويقول لها بصوته الملائكيّ العميق القادم من البعيد: "اصمدي، نامي على صدري، سأحكي لكِ يا صغيرتي حكاية، حكاية (عقلة الإصبع).

"نعم . . تسع وردات حمراوات لو سمحت"، وردّد صوتٌ بأسىً في داخلها: "بقدر سنين الشّوق والبعاد" . وأضافت موجّهةً كلامها للبائع:-

- "هل أستطيع استخدام الهاتف؟"

أومأ البائع بالموافقة، أدارتْ قرص الهاتف بتؤدةٍ لم تعهدها في نفسها، فجاء صوته الدّافئ، صوتٌ قادمٌ من مراقص الجنّة،

صوتٌ عاشتْ على أمل سماعه سنوات طويلة، "إذن هو موجود في مكتبه" قالتْ في نفسها.

ضمّت باقته الجميلة التّي تتضوّع برائحة الياسمين والزّهور الجوريّة، تأمّلتْ الياسمين، ثمّ حضنتْ الباقة بشوق، شعرت بوهج أنفاسه يملأ أركان روحها، باتتْ زفراته قريبة وكأنّه ها هنا، سخرتْ في أعماقها من بيتَيْن من الشّعر كان قد ودّعها بهما قائلاً :-

"حكاية حبّنا خُتمتْ فما أقسى وما أشجى!
جميلٌ منكِ أن تعفي وأجمل منه أن أنسى"

الرّدهة المؤديّة إلى مكتبه بدت طويلة، طويلة بقدر طول سنين الفراق، أخذت تركض مثل طفلةٍ تركض نحو حضن والدها، دلفتْ إلى مكتبه ترتعش وهي تستشعر دقّات قلبها الذّي يقرع بجنون ، وكأنّه يطالبها بأن يقفز شوقاً عند أقدام ذلك الرّجل الذّي يتأمّلها بنظراتٍ غريبة، بنظراتِ رجل وجد كنزاً في مكان راهن عليه. نظرتْ إليه، تأمّلته، اقتربتْ منه، وقفتْ قُبالته، حدّق فيها بشوق من انتظرها ألف سنة، وسّد رأسها إلى صدره، وهو صامت كصمت من حطّمته الرّحلة الطّويلة،

تشبّثْت به معلنةً نيّتها بعدم فراقه وملازمته إلى الأبد، سبَحتْ في بحر عينَيْه، وهي تغالب الدّموع، وقالت له: " احكِ لي حكاية".

بئر الأرواح

لم تكن تعلم أنّ اللّيل مخيفٌ في هذه البئر إلى هذا الحدّ، عندما كانا صغيرَيْن اعتادت أن تأتي وإيّاه ليلعبا حولها حيث صوت البحر يتنزّى من بين جدرانها، ثمّ أخذا يقصدانها ليتبادلا الغرام عندها عندما أصبحا يافعين، لكن أبداً لم يدخلا فيها؛ بسبب شهرتها المخيفة التّي مفادها أنّها مؤولٌ أزليٌّ للأرواح لا سيّما تلك الهائمة أو التّي لا ترغب في مفارقة الأرض حيث دنيا الأرواح، لم تكن بئراً بالمعنى المعتاد، ولكنّها كانت تجويفاً دائرياً كبيراً، يتوسّطه درجُ صخريٌّ منحوتٌ بعشوائيّة وبلا نظام ومتعرّج، يؤدي مباشرةً إلى أسفل البئر حيث يبرز لسانٌ صخريّ يحجب ضوء الشّمس، ويمنع الرّؤية، وفي أسفل البئر يرتفع الماء فقط لمسافة نصف متر تمتدّ عبر قناةٍ ضخمة مؤديّة إلى البحر القريب منه، سمعت أحدهم يقول في الماضي" إنّ ماء البحر يرتفع إلى حدّ الفيضان في بعض ليالي المدّ الشّتويّة، حتّى أنّ الأرواح تضطر عندئذٍ إلى أن تغادره هروباً من البلل الذّي تكرهه."

لم تظنّ أبداً أنّها ستدخلها وحيدةً خائفة في ليلة مثل هذه، بصعوبةٍ نزلت الدّرجات الصّخريّة، جلست على آخر درجة، الماء يغمر قدميها حتّى الرّكب، البرد يخترق عظمها، لكنّها لا تبالي، تسند المصباح الزّيتيّ القديم الذّي تحمله إلى الحائط الصخريّ، وتكوّم كيس الخيش الذّي تحمله في حضنها، تتحسّسه بمزيج غريبٍ من الخوف والحُبّ والرجاء، تجيل نظرةً متفحّصةً بريبةٍ في المكان، تتساءل في أيّ الأماكن تسكن الأرواح يا ترى؟! تشعر بأنّها ترزخ تحت صخرةٍ عظيمةٍ تكاد تسحقها، موج البحر يضرب قدميها، أصوات اللّيل الخفيّة تتغوّل في المكان، وتلفحها بالقلق من جديد.

استجمعت شجاعتها المغمّدة بأحزانها، وقالت :" يا بئر!!! أريد روح زوجي. أريد روحه يا بئر. . أتسمعينني؟ أنا أحبّه".

ردّد المكان صدى الصّوت : "أريد روح زوجي، أريد روحه يا بئر . . أتسمعينني؟ أنا أحبّه . . بّه .. بّه".

ساد الصّمت في البئر من جديد، انكمشتْ على نفسها أكثر، لكنّ الكيس الذّي تحمله بين يدَيْها استحثّ شجاعتها من

جديد، صدرتْ عنها حركة غير مقصودة، اصطدم حذاؤها البلاستيكيِّ القديم بقعر البئر، سمعت خشخشة معدن، خمّنت أنّها قطعة معدنيّة من تلك النّقود التّي يلقيها النّاس في البئر عندما يرسلون أمنياتهم خلفها، أيّ تلك القطع المعدنيّة هي من القطع التّي ألقتها هي ومن تحبّ في الماضي؟ كانت أمنياتهم تدور حول البقاء معاً طوال العمر، لم تكن تعرف أنّ الموت سيكون في المرصاد لأمنيتهم الوحيدة.

أخرجت من صدرها إحدى القطع المعدنيّة من أكبر الفئات، قبّلتها كما اعتادت أن تفعل في الماضي، تمنّت أن تستجيب البئر لنداءاتها، وألقت القطعة في الماء، فوقعتْ قريباً منها، تأمّلتْ تلك الدّوائر الصّغيرة التّي ارتسمتْ على صفحة الماء ،وهي تبتلع القطعة المعدنيّة الغارقة.

عادتْ، وقالتْ بنبرةٍ أكثر إصراراً : "يا بئر!! أريد روح زوجي . . . أريد روحه يا بئر".
ردّد الصّدى :"يا بئر .. بئر .. بئر ...ئر".
أجابتْ البئر بصوتٍ لا يقلّ صخريّة وقسوة عن جدرانه : "روح زوجك محبوسة في هذا المكان، ولا تستطيع الخروج".

قالتْ برجاء كبير: "أرجوك . . أنا لا أستطيع أن أعيش من دونه، أنا أحبّه، وها قد أحضرتُ جسده معي".

مدّتْ إليها بالكيس الذّي تحمله، كانت قدماها تهتزّان تحت وطأة جسدها المُروَّع القلق، حضنتْ الكيس، وردّدتْ: "ها قد أحضرت جسده معي". ساد الصّمت من جديد، استذكرت أيّ خوفٍ تجرّعته لتحصل على هذا الكيس، أمضت صدر هذه اللّيلة في المقبرة عند قبر زوجها لتنبش رفاته، أخرجت ذلك الباقي اليسير من جسده، ضمّتْ بعضه إلى بعض، افتقدتْ الكثير منه، أين اليد اليسرى؟ أين العين اليسرى؟ أين عظام الرّقبة؟ أين . . . أين . . . ؟ ما أبقاه الحيوان المفترس منه كان نزيراً، لقد ازدرد جسداً عشقته، وعشقها، وأذابها سعادة وحبّاً.

منذ ليالٍ غادر، ولم يعد، في ما بعد أعاده الصيّادون أشلاءً، وقالوا: "إنّ وحشاً من وحوش البريّة قد افترس جسده"، دفنوه دون أن تراه، وقالوا إنّ رؤيتها للباقي من جسده سيضاعف آلامها، ويعمّق وجدها، عندما جمعت الأشلاء من القبر، قبّلت كلّ جزء منها، حتّى تلك القطع اللّحميّة التّي لم تعرف ما تكون، قبلّتها بالشّوق والاشتهاء ذاتهما.
"يا بئر . . . أعيديه إليّ . . ."

اهتزّت البئر من جديد، انزلقت على حين غرّةٍ في الماء، انتفضت خوفاً وبرداً، أسندتْ جسدها إلى الجدار الصخريّ المبتلّ الذّي تكسوه الطّحالب، وانتصبتْ في الماء من جديد، علا صوت البئر، التي قالتْ بعمق ورتابة ولا مبالاة: "لا يمكن أن أهبك روحه بلا جسده، اذهبي وعودي بجسد، فأعيد روح زوجك إلى ذلك الجسد".

تبرّمت المرأة الممتقعة بحزنها، وقالتْ بصوت متقطّع قلق، بعد أن فتحت الكيس البنيّ الذّي أطلّت منه الأشلاء التّي سارع التّعفن إلى بعضها، وقالت :" ولكنّ جسده هنا معي، أجابت البئر: "هذا ليس جسد بل أشلاء، أريد جسداً كاملاً". قالت المرأة بعجزٍ وانكسار: "ومن أين آتي بذلك الجسد؟"
قالت البئر : "لا أعرف".

وغاب صوت البئر، حضنت المرأة كيسها الحزين، عانقته، أحسّ جسدها ببرودة وتيبّس تلك الأشلاء التّي يحتويها، غالبت دموعها وقهرها، فغلباها، تنشّقت دموعها ومُخاطها، أحسّت بالعجز، بل بكلّ العجز، وقالتْ بصوتٍ خفيض كأنّها تخاطب الكيس لا البئر: "ولكنّ هذه الأشلاء هي حبيبي". حملتْ

كيسها، وغادرتْ البئر مكسورةً مخذولة، وقــرّرتْ أنّ تــستعيد روح زوجها بأيّ شكل .

في الصّباح كان الموج يغــسل أســفل البئــر، يغــسل صخوره دون ملل، وهو يغسل قدميها وهي تحمل كيسها، وقفتْ وهي تحتضنه كأنّه وليدها الضّائع، داعب نسيم الصّباح شــعرها الكستنائيّ، وطيّر شيئاً من دموعها، مرّت أحــداث ليلــة أمــس عشرات المرّات في ذاكرتها المشروخة بصديد الألم والفقــدان، لقد حاولتْ ثمّ حاولتْ أن تعود بالجسد المطلوب ، ولكــن دون جدوى، كلّ الأجساد التّي طوّفت عليها سرّاً في اللّيلة الــسّابقة كانتْ أجساداً تملك أرواحاً يعشقها آخرون، لم تستطع أن تكــسر سعادتهم، لم تجرؤ على سرقة أجسادهم، حال حبّها لزوجها بينها وبين إزهاق أرواحهم؛ فمن ذاق طعم الحــبّ ، لا يــستطيع أن يفجع محبّاً في حبّه، فتركتْ الأجساد لمن يحبّونها، وعادت تحمل الكيس وأمنياتها وعجزها.

صاحتْ برجاءٍ من جديد: "يــا بئــر . . أريــد روح زوجي . ."
أجابتْ البئر برتابتها الأزليّة: "أريد جسداً؛ كي أردّ روحه".

تنفّستْ صوتها، غرقتْ خياشيمها في صدى كلامها، فتحتْ كيسها، ومن مكانها في أعلى البئر، قبّلتْ ديدانه وعفونته، وألقته في ماء البئر حيث تجرفه الأمواج، شعرت بأنّ جسد زوجها سيكون أسعد ما يكون بين طيّات اليمّ الذّي لطالما أحبّه ، وحدّثها عن غرامه الذّي لا يعرف النّهاية، مزّقت أعلى ثوبها، انكشف معظم جسدها الأعلى، ألقت بغطاء رأسها الأسود بعيداً، خلعت حذاءها البلاستيكيّ، وخطتْ بضع خطوات، فأصبحتْ في مواجهة البئر تماماً، وإزاء صخورها الصّلدة، نظرتْ إلى قاعها نظرة تحدٍ، ابتسمت برضىً ،وقالت: "أيّتها الرّوح، يا روح زوجي الحبيب، لكِ جسدي موئلاً، ادخلي فيه، يا روح أنا في انتظارك، جسدي سيكون موئلاً مقدّساً لخلجاتك، جسدٌ واحد يكفي لروحين عاشقتين، يا روح حبيبي اعصي هذه البئر الغاشمة ،واستجيبي لصوت من يحّبك . ."

اضطّربتْ البئر بشدّة، تهدّمتْ بعض أسوارها، غارتْ مياهها، غادرتها الكثير من الأرواح، اضطّربتْ روح زوجها، أطبقتْ على ترقوتها، واخترقتْ جسدها بعنفٍ كأنّها تغزوه، ارتعدتْ، ثمّ فاض جسدها سعادةً بالرّوح الجديدة، وامتزجتْ الرّوحان، كانتْ مساحة الفرح كبيرة ،ولكنّ جسداً عاشقاً يكفيها،

يكفيها تماماً، لفحها برد الـــصّباح، الـــشّمس داعبـــتْ هـــدبيها ، وعادت أدراجها شبه عاريةٍ مـــن ملابـــسها ،تحمـــل روحـــين عاشقتين كلتيهما قد قهرتا جبروت البئر الغاشمة.

قطّته العاشقة

" كنتُ أعرف أنّها قادمة، لنقل إنّني كنتُ متأكــداً مــن ذلك، وإن أردتَ الصّدق كنتُ أتمنّى أن تــأتي، أتعــشّق لحظــة انعتاقها في دنياي، وجريانها دماً وجسداً في ذاتــي، لحظــات الانتظار كانت ملاذي السّرّيّ في دنيا بات من المستحيل أن نجد فيها وقتاً للحلم، ولكنّني كنتُ لصّاً خطيراً إذ استطعتُ أن أغافــل الوقت، وأسرق منه ريشةً أرسمها بها، بل إنّني خطّطتُ لرسمها في تاريخ ذكريات الزّمن القادم معها . . وانتظرتْ . . . "

" تخيّلتها امرأةً تعشقني حدّ الجنون، أشبهت كــلّ نــساء الأرض، وفارقت كلّ نساء الأرض، وفي وجداني كانــت كــلّ نساء الأرض معاً، بيضاء أو ســمراء أو صــفراء، طويلــة أو قصيرة، حنونة أو حقودة، بحثتُ عنها في كلّ النّــساء اللّــواتي عرفتُ واللّواتي لم أعرف، عشقتُ آلاف المرّات، ولكنّني خبّأتُ العشق لها حتّى تأتي " .

- "وهل أتتْ؟"

– "نعم، أتتْ، ولكن على غير ما أشتهي".

قال الشّابّ بحماسٍ افتقده في نفسه منذ زمن: "كيف؟".
ابتسم الرّجل الذّي داعب الشّيب ذوائبه، واكتسح الصّلع مقدمة رأسه، وقال بهدوءٍ من سيروي قصّةً قدسيّة؛ ليتعبّد بها أمام النار: "جاءت قطّة؟"
– "تعني أنّها جاءت بمثل مشاكسة قطّة، أليس كذلك؟"
– "أبداً".
- "أتعني أنّك أحببتَ القطط بدل البشر؟"

ربت الرّجل على فخذ الشّابّ بحنانٍ، وقال له: "دعني أعدّ لكَ الشّاي". انتصب الرّجل على قدميه، كان يبدو أطول مما توقّع، بجسد ممشوق، وجلد كأديم الأرض، وعينَيْن يغمرهما البحث والشكّ، سريعاً ما غاب، خطواته المديدة في داخل الكوخ، حدّق الشّابّ في المكان الذّي حوله، استنشق الشّابّ أقصى ما استطاع من هواء الغابة النّقي، أسدل عينَيْه لدقيقة، انزلق في مقعده الخيزرانيّ، ثمّ فتح عينيه، وأخذ يصافح بهما بودٍّ عميق وألفةٍ نادرة كلّ جزء في الطّبيعة، عجب من نفسه كيف أنّه أسوةً بمعظم البشر يمرّ بالأشياء كلّ يوم ، ولا تستوقفه، لعلّ النِّعم تُنْسِي الشّكر، أمّا الآن فقد بات يعلم قيمة كلّ لحظة من لحظات التوقّف أمام جماليّات وفلسفيّات البديهيّات

والمعتادات التّي نمرّ بها كلّ يوم دون أن تستوقف عجلة يومنا ولو للحظات. لا بدّ أنّ اقتراب انتهاء العرض المجانيّ للإبصار عنده هو السّبب في توقّفه الاستثنائيّ أمام مفردات حياته، في صباح هذا اليوم قال له طبيبه الخاصّ وبعد معركةٍ طويلةٍ مع الفحوصات والأدوية والعمليّات إنّه مهدّدٌ بالعمى الذّي سيأتي سريعاً وحازماً في القريب العاجل، أراد أن يغلق الأبواب دون الحياة، ولكن للحظة شعر بأنّ العمى المقيت سيحرمه من فرصة التوقّف، لم يشعر من قبل بحاجةٍ أكثر إلحاحاً على نفسه من حاجة التّحديق في الأشياء والوجوه؛ لذا قرّر أن يتوقّف أمام كلّ شيء. وكان السيّد فرح صاحب هذا الكوخ هو أوّل من توقّف أمامه، هو من رتابة يومه، يقابله كثيراً في شوارع البلدة وهو يرتدي ملابسه الرّياضيّة وحذاءه المطاطيّ وحيداً كما أَلِف أن يراه، يسير بكبرياء، ومخايل الصّفاء والذّكاء في قسماته، قلّما يبتسم، يشتري احتياجاته سريعاً، يحزمها برشاقة، ويضعها في سيّارته القديمة، ويغيب بين زحام الأشجار في الغابة التّي تقع على التّخوم الشرقيّة للبلدة، حيث يعيش وحيداً مع قططه التّي يعجّ بها المكان، ليختليَ معها بأسراره وماضيه، الذّي بات يثير القليل من الفضول حوله في البلدة.

عندما كان صغيراً، كان يخشى رجل الغابة كما كان يسمّيه صبية المدرسة، كانتْ جدّته تتحدّث عنه بحياديّة يمقتها، البعض قال إنّه يختبئ من جريمة اقترفها، آخرون قالوا إنّه يعشق الرّسم في الغابة، أبوه كان يلعنه كلّما ذُكر اسمه دون سبب، وينعته بالكافر، جارنا اللّحام أكّد أنّه لا يشتري اللّحم منه، وزعم أنّ رجل الغابة يربّي القطط لا لأنّه يحبّها، ولكن ليقتات من لحمها الذّي يحبّه بشكلٍ خاصّ، يصلّبها إلى الأشجار، ويسلخ جلدها وهي حيّةً تموء، وتستعر بحدّ مديته .

المكان يعجّ بالقطط، راقب إحداها وهي تشاكس فراشةً ملوّنة، وتساءل هل في داخل الكوخ أكوامٌ من فراء القطط المغتالة؟ فكّر في أن يطلب من رجل القطط كما ألف أن يسمّيه أن يدعوه إلى جولةٍ في داخل الكوخ الصّغير، ولم يستبعد أن يقبل، فهو رجلٌ دمثٌ هادئٌ يمور بجاذبيّةٍ خاصةٍ وذوق رفيع لا سيّما أنّه قد زاره بشكل مفاجئ ودون معرفة مسبقة، ووجد عنده حفاوةً كبيرةً، دفعته إلى أن يحدّثه عن مأساته المتوقّعة التّي ينتظرها انتظارَ غير وامق.

داعب إحدى القطط ذات الفراء الأحمر.

– "هل تحبّ القطط؟" سأل الرّجل ،وهو يُقبل عليه حاملاً كوبَيْن من الشّاي الذّي تفوح منه رائحة النّعناع البريّ.

حدّق به الشّابّ قليلاً، ثمّ ساعده في وضع الكوبَيْن على جذع شجرةٍ مقطوعةٍ يتخذّه الرّجل طاولةً غير مشذّبة: "نعم أحبّها، وأنت؟".

– " أحببتها دائماً" .

قال الشّابّ بنبرةٍ ذات مغزى: "وهل أحبّتك ؟"

صمت الرّجل، ثمّ رشف شيئاً من الشّاي، وقال: "لماذا اخترتَ أنّ تزورني الآن بالذّات؟" قال الشّابّ بنبرةٍ بدت صادقة: "لا أعرف . . صدّقني لا أعرف".

– " إذن اعلم أنّني أرغب في أن أحدّثك بشيءٍ، لم أحدّث أحداً به من قبل، لطالما خشيتُ أن تُظنَّ بي الظّنون، وأن أجد نفسي في مستشفى المجانين إن بحت بشكواي. لي فراسةٌ خاصّة، تقول لي إنّني لن أراك بعد الآن، وإنّك لن تعود إلى هذا المكان، ونحن البشر يريحنا أن نبوح بشكوانا لمن نثق من أننا لن نلقاهم فيما بعد وهم محمّلون بأسرارنا وخصوصيّاتنا " .

أومأ الشّابّ برأسه باهتمام ،وكأنّه يدعوه إلى الاستمرار في الحديث، واقترب لا شعورياً من مقعد الرّجل، الذّي عقد رجلاً على رجل، وأبرق بعينَيْه نحو البعيد، الذّي يبدو قريباً من نفسه وقال: "إنّ لي قصةً مع القطط ".

سارعه الشّابّ بالقول بفضول نزق: "هل تأكلها؟".

حدّق الرّجل في وجه الشّابّ بدهشةٍ، ثمّ انفجر ضاحكاً، لأوّل مرّةٍ يرى ابتسامته العذبة التّي تتدفّق مثل جريان نهرٍ صغيرٍ: "بالطبّع أنا لا آكلها، من أسرّ لك بهذه السخافات؟"

شعر الشّابّ بخجلٍ خاصّ، من جديد ربّت الرّجل على فخذه، وقال: "لك أن تصدّق ما أقوله أو أن لا تفعل؟ ولكن تأكّد من أنّني أعلمكَ بالحقيقة، ولا شيء غيرها. قبل سنوات اقتنيتُ قطّةً صغيرة، كنتُ قد وجدتها على وشك أن تنفق على أيدي أطفالٍ عابثين، خطفتها من أيديهم، وأصبغت عليها رعايتي وحبّي، حتّى أنّني بتُّ أمّاً لها، أرضعها الحليب من زجاجة اصطناعيّة، كانت شقراء بعيون لازورديّة، لم أرَ عيوناً تحمل مشاعر حبّ كالتّي كانت في عينيها، أصبحتْ أثيرتي، لا تفارقني لا ليلاً ولا نهاراً، ولسبب أجهله باتت مِزقةً من نفسي،

لهوها كان يسعدني، وانشغالي عنها يجعلها تشتاط غـضباً، ولا تمانع في خرمشتي،ألم أقل لك أنّها كانت أثيرتي .

واستمرّ الحال على ما هو عليه إلـى أن تعرّفـتُ إلـى إحدى الفتيات ،وقرّرت أن أتزوّجها، كان أوّل قرارٍ لها هـو أن أتخلّص من تلك القطّة، لقد كرهتها، وادّعت أنّها تخشى القطـط، لكنّني في عينَيْها رأيت حقداً دفيناً على قطّتي، وقرّرتُ أن أتخلّى عن قطّتي التّي كانت تتحوّل إلى حيوانٍ مفترس كلّمـا زارتنـي خطيبتي في الشّقة، ولا أعرف لماذا شعرتُ بأنّ الـتّخلص مـن القطّة يعني إلقاء مِزقة منّي في العدم.

وكانت ليلة الزّفاف، لم أكن أشعر ليلتها بالسّعادة، بـل شعرت بأنّ الدّنيا سترحل مع قطّتي ،التّي سيأتي أحـد أقـاربي ليضمّها إلى قططه حيث يعيش في إحدى الضّواحي البعيـدة . . كنت أتهيّأ لارتداء بذلتي عندما تسللتْ القطّة إلى غرفتي، حاولتُ أن أداعبها، ولكنّني شعرتُ بنفورٍ منها لم آلفه، حضنتها رغمـاً عنها بين يديّ، في عينيها رأيـتُ دموعـاً، وفجـأة انهمـرت دموعها، اختلطت الأمور عليّ، أنّى لقطّة أنّ تبكي مثل البشر؟! وكانت تلك الدّموع بوابتها إلى البشريّة، فقد انسلخ جسدها،وتفتّق

عن فتاة وديعة، قبلّتني، وضمّتني بشّدة، دنتْ منّي، كان منظــراً مروِّعاً لي، فقد حسبتها شــيطاناً أو روحــاً شــريرة. وهربــتُ صارخاً خارج البيت، وأغلقتُ دون امرأتي القطّة الأبواب .

وكان الزّفاف . . . واختفيتُ مع زوجتي في أحد فنــادق العاصمة التّي زرناها، كنتُ أخشى العودة إلى الشّقّة، تــساءلتُ هل ستكون تلك المرأة القطّة في انتظــاري؟ كــم خــشيتُ أن أجدها، وكم خشيتُ أن لا أجدها، طوال أيّام الخلوة مع زوجتــي لم يفارق طيفها الآدمي ناظري، اللّعنة، كيــف هربــتُ مــن عشقها؟ لقد وهبها العشق الحياة، فأنّى لي أن أهــب لهــا؟ بــتّ أشعر أنّها امرأتي الخرافيّة التّي أفنيتُ الانتظار وأنا انتظرها ".

صمتْ الرّجل ، وقد بدتْ علامات المرارة على قــسماته التّي تعكّر صفوها. قال الشّابّ باهتمام: "أرجوك، اكمل القــصّة، ماذا حدث بعد ذلك؟!" ابتسم الرّجل ابتسامةً مقتولة، وقال: "عدتُ إلى الشّقّة مع زوجتي".
قال الشّابّ ، وهو يكاد يقفز من مكانه مثاراً: "وهل وجدتها؟"
قال الرّجل بيأسٍ من ذوّب كنزاً في الحامض: "بل وجدتُ قطّتي ميّتة، وقد تعفّنت".

" من بعدها لم أطق زوجتي، لازمني شـــعور الـــذّنب، شعرتُ بأنّها تآمرتْ على قطّتي العاشقة، ثم هجرتُها غير آسف، وهجرت البلدة، في ما بعد ربّيت مئات القطط، وطوال ســـنوات طويلة انتظرتُ أن تُبعث روحها في أحد تلك القطط، يا لله كـــم أحتاج إلى أن أخبرها ولو لمرّةٍ واحدة بمبلغ عشقي!! ما أبـــشع أن يرحل من قطعنا العمر في انتظارهم دون أن نقول لهم إنّنـــا نحبّهم " .

من جديد صمت الرّجل، كان يبدو أنّه لن يقول المزيـــد، لكنّه قال بلا مبالاة: "أنتَ لا تصدّقني، أليس كذلك؟ أنتَ معذور. لكن صدّقني نحن نقابلهم مرّةً واحدة في الحياة".

- "من هم؟"

– "الّذين يمكلون أن ينيروا حياتنا سعادة . . ."

وخيّم الصّمت، شعر الشّابّ بأنّه يرثي لهـــذا الرّجـــل التّعس الذّي صدّق كلّ حرفٍ من قصّته العجيبة، لمَ لا؟ والحـــبّ نبي المعجزات. انسلّ الشّابّ من مكانـــه دون أن يلـــوي علـــى شيء، ودون أن ينبس ببنت شفة.

في الطّريق توقّف لعشرات المرّات، حـــدّق فـــي كـــلّ الوجوه والمناظر، وأدرك أنّ من نبحث عنهم هم دائماً أمامنـــا، وأنّ الحياة يصبح لها طعم آخر عنـــدما نتوقّـــف قلـــيلاً عنـــد جزئيّاتها . . ولو كان ذلك التوقّف عند مواء قطّة . . .

زاجر المطر

يصمّ عينيه، يرهف حواسه التي صقلتها الدُربة ، يغمس سبابته في لعاب فمه، ثم ينصبه في اتجاه الهواء ، الذي يحدّد بملامسته الرقيقة لأصبعه مساره ، يراقب الأفق الغربي ، ثم يقول:" إنّ المطر سينزل بعد ساعة أو يوم أو لحظات "، فيصدق قوله ، ويوافي المطر ميقاته الذي ذكره زاجر المطر ، أو يهزّ رأسه يمنة ويسرة بإيماءة استعراضية هادئة ، ويقول بلا مبالاة: " لا أمطار في الوقت الحاضر " ، ويولّي دون أن ينتظر هبة أو هدية بشارة ، فهو يعرف أنّ لا فلاح يرغب في مهاداته بعد أن أقنطه من نزول المطر في القريب ، وإن كان لا يبالي أصلاً في هدايا الفلاحين التي لا تعدو أن تكون بضع بيضات بلدية ، أو صندوق خضار أو فواكه ، أو بضعة قروش يصرّونها بحذر واهتمام ، وهو في الوقت نفسه لا يبالي بهدايا الأقارب والمعارف والأصدقاء ، التي غالباً لا تفضل عدمها ، فهي هدايا تعبّر عن ابتهاج وانبهار بموهبته الاستثنائية، أكثر مما تعبّر عن ابتهاج أو عن اغتمام بقدوم المطر أو بانحباسه، فهم حَضَر لا يعنيهم المطر بشكل مباشر ، ولا يتجاوز اهتمامهم به تدبّر لباس الصباح ، أو توقيت مواعيد الدعوات ، ورحلات نهاية الأسبوع،

لذا بات يكتفي بإعجاب الحاضرين وثناء الحسنوات على موهبته، هبة التنبؤات المطرية ، وسرعان ما غدا ممارساً لهواية زجر المطر لإسعاد نفسه ، ولبعثها على الاعتقاد بقدارته التي تمخّضت وتقلّصت وتمدّدت لتتلخّص في القدرة على التنبؤ بقرب سقوط المطر.

يرفض أن يُسمى زاجر المطر كما كان يسمي أهل أصقاع الخصب في أقصى جنوب الجزيرة صاحب موهبته ، التي تُحصّل بالتمرس وباستعداد فطري خاص لإرهاف الحواس، وحذق الإصغاء لهمس الطبيعة ، ولإرهاصات ولتحولاتها ولتبدّلاتها ، فهو يعلم أنّ زّجر المطر ليس بمعنى أو بآخر قدرة على إنزال المطر ، ولكنّه موهبة فريدة في توقّع نزوله ، وإن كان يستسلم مبتهجاً في معظم الأوقات ، مغيضاً في بعض الأوقات للقب زاجر المطر ، فهذا اللقب يورثه حنقاً وسخرية عندما تضيق الأحوال، ويمد يديّه ليصبّ جيباً فارغة ، لا تحوي ولو في أحسن الأحوال قرشاً واحداً .

لا يتذكّر بالتحديد إن كان جاء من بلاد الخضرة والماء يبحث من عمل ، أم أنّه آبَ عائداً مخذولاً من بلاد الخضرة

والماء بعد أن هاجر إليها بحثاً عن العمل ، لكنّه متأكّد تماماً من أمرين، الأول أنّه لم يوفّق أبداً في تحصيل لقمة عيشه بطريقة كريمة ودائمة، والثاني أنّه أعظم زاجر مطر في الدنيا بشهادة معلّميه وأهل بلاد الخضرة والماء ، وإن قصّر لقبه المجيد وموهبته العبقرية دون أن يشبعا معدته الجائعة ، أو دون أن يؤّمنا لقمه يومه .

يستطيع أن يدّعي أنّه لا يبالي بفاقته ، ولا بحاجته، ولا بسوء طالعه ، ويستطيع أن يجد من يصدق ادعّائه ، ولو بتحفظ، للدقة يستطيع أن يدّعي أنّه أسعد خلق الله ، لكن كلّ ادعاءاته لن تحول دون تقلصات أمعائه جوعاً ، ولن تمنع معدته من أن تعضّ على نفسها طلباً للطعام ، وتمرّداً على الجوع ، لذا من الحكمة أن يقنّن في ادعاءاته ، وأن يستمرّ في رحلة مطاردة لقمة العيش التي أضنت قدميه ، وأقلقت حياته.

تمنّى لو أنّ أستاذه العجوز الذي علّمه موهبة التنبأ بالمطر كان قادراً على تعليمه أيّ موهبة أخرى ، تفتح عليه أبواب الرزق مثل أن يزجر الحظ ، فيأتي إليه منقاداً بعد خصام طويل ، أو أن يزجر الموت ، فيبتلع جارتهم نعمات اللعوب التي

ما تفتأ تخون زوجها العجوز على مرأى من عجزه وقلة حيلته ، أو أن يزجر الحياة فترتدّ سحراً في رُفات أبيه ، فتيقظ الحياة فيه؛ ليكتنفه بعطفه ، وليرحمه وأخوته من أن يصبحوا إرثاً يتقاسمه الأعمام والعمات على هون وكره ، بعد أن رحلت أمّه الأرملة ، لتتندسّ في حضن زوج أرمل صمّم بخلافها على أن يحتفظ بأولاده في بيته ، وأن يشتري لهم خادمة ليل نهار بعقد زواج أبدي .

أو أن يزجر الحبّ والرحمة فينصبّان في قلوب أهل سهام ذات العينين العسجدتين ، التي حُرم منها فقط لأنّه فقير ، وأُرغم على أن يودّعها ، وهي ترحل إلى حضن رجل ميزته الوحيدة أنّه صاحب دراهم وأموال ، أو أن يزجر التجارة الحلال فيكفّ أبو وسيم المرابي عن امتصاص عظام المستدينين فضلاً عن دمائهم ، نظير أمواله التي يقدّمهم لهم ليستردها أضعافاً مضاعفة ، مستغلاً حاجة المحتاجين وضائقة الغارمين .أو أن يزجر الأحلام فتأتي حقيقة تتلوّى واقعاً أمام عينيه، وتهبه السعادة المؤجلة والأمنيات الملغاة .

لكن في النهاية عليه أن يستغني عن أحلامه وتمنياته ، وأن يسلّم لحقيقة أنّه زاجر مطر لا غير، يجيد هذه المهنة في حين يعجز عنها معظم البشر ، وإن كان للأسف لا يجيد معظم ما يجيده كلّ الناس.

الظروف مسؤولة عن غالب خرقه وقلة حيلته وفساد حظه، ويأسه وقنوطه، وهو مسؤول عن الجزء الأخير،والأقل من مآل حاله ، باستثناء انتصار قسمته في التحصيل الدراسي ، فقد كان الأوّل في صفّه منذ أن بعث به عمه إلى المدرسة متجاوزاً عن رغبته في استخلاصه لمهنته ، وضارباً عرض الحائط برغبة زوجته التي أرادت أن تجعله خادماً بالسخرية لبنيها وبناتها ،في السنة المدرسية النهائية حصّل معدل ٨٥،٥ % ، وعُدّ فريد عصره ، وخريدة أوانه في أعين الأقارب وأبناء العمومة ، لكن فقره وقف من جديد أمام طموحه، وأسبغت عليه زوجة العم التي ضُرب مراراً ليدعوها أمي نكاية به لقب أجود الهبيلة ، فلصق اللقب به ، في حين بقي غيظ الأمّ المزعومة يحرق جنباتها دون أن يُفنيها، ودون أن يفلح مرة في الانتقام منها ، وفي ردّ لقبها السخيف إلى نحرها الغليظ ، إلا في مرة واحدة كانت الإرهاصة الأولى لموهبته ، أنفه عندها كان يعبق برائحة

المطر، كان متأكداً من أنّ عاصفة ماطرة تلوح في القريب على الرغم من صفاء الجو ، كاد يخبر الكلّ باقتراب نزول المطر ، لكنّه سَرّ ذلك في نفسه لكي يضيّع على زوجة عمه فرصة جمع البقول والخضار التي أفنت الصيف في جمعها، وفي تقليبها تحت الشمس تمهيداً لتخزينها ، وجاء المطر شآبيب ضخمة، وفسدت كلّ بقولها وخضارها ، واغتاظت زوج عمّه إلى درجة التجديف والبكاء ، في حين انخرط في رقصة ابتهاج مهللاً ، غير مبالٍ ببصقها عليه ، ولا بتشديدها على اتهمها له بالهبل.

عاد من أرض الخضرة لا يحمل إلا الفقر وزجر المطر ، على الرغم من أنّه بحث طويلاً عن عمل دون فائدة ، إلا أن صدفه العجوز ذو العينين الصقريتين ، توقف بمحاذاته ، تأمّل سكونه ، ثم قال :" يا هذا ،ماذا جئت تطلب في هذه الأرض ؟"

- "جئت أطلب عملاً ، أأجد عندك عملاً ؟ "
- "لست في حاجة إلى عمّال، ولكن أستطيع أن أؤمّن لك المأكل والمشرب والمبيت مقابل أن تتعلم مني ."
- "ماذا تريديني أن أتعلّم منك؟"
- "الآن تعرف إن قبلت بالاتفاق."
- "لكن.."

- "دون تردّد ..."

وافق يومها على أن يتعلّم علم العجوز ، لا رغبة في علمه ، ولكن رغبة عن الجوع وعن المبيت على الأرصفة. في أشهر قليلة من التعلّم الذي وافق مواهبه واستعداده الفطري غدا زاجر المطر ، ما كان يعلم في أيّ المجالات يمكن أن يسوّق قدراته ، وإن كان حسبه أن يخرج بعلم فريد غريب ، قد يستعمله مثلاً في الشعوذة أو السحر الذي نعاه أستاذه طريقاً للكسب ، وحذّره من مغبة اتباعه ؛ لأنّه سيكون قطيعة لا وصل بعدها بينه وبين زجر المطر ، فأسقط في يديه ، وقبل بالإياب إلى موطنه غنيمة .

ولأنّ لا أحد في المدن معنيّ بانتظار المطر فضلاً عن التوقف والتحديق في زرقة السماء، فإنّه لم يجد له أيّ عمل يليق بقدراته الخارقة ، قدّر أن بعض الدعاية ستفيده ، أنفق ثمن قلادة المطر التي أهداه إياه معلمه على بعض الإعلانات التي بثّها في المجلات والصحف ، يتنبأ فيها بقرب هطول المطر ، أو ببُعد ذلك .

لكن أحداً لم يبال به ، علّق برقبته بطاقة تعريفة مكتوب عليها " زاجر المطر " بخط أنيق وواضح ،واندسّ في جموع الكثير من الأندية الطلابية ، والمؤتمرات الحزبية ، والتكتلات الوطنية ، حتى أنّه اندس في منظمة الرفق بالحيوان ، وجمعية إعمار كلكتا ، ودائرة مناهضة الإرهاب الجنسي ، ومنظمة "لا لضرب الزوجات " ، ومؤتمر العقم الدولي ، ورابطة القلم الحرّ ، واستديو التصوير الحرفي . أمضى الساعات في متابعة برامجهم ، قدّم أوراق عمل متعدّدة تبرز قيمة المطر ، وأهمية التنبأ به في دعم برامجهم الخيرة ، أفنى الساعات في مساجلات طويلة حول أهمية دوره الريادي المفترض في أيّ مؤسسة ستتبناه ، ولكن دون فائدة ، فلا مكان في الدنيا يرغب في زاجر مطر حزين ، يملك أنفاً سحري يشتمّ رائحة الماء من على بعد سنين ضوئية .

بتوصية هاتفية متواضعة من إحدى الرئيسات المسنّات في منظمة المشاريع الصغيرة التي أبدت إعجاباً خالصاً بتكوّر فخديه ، وباتساق أعضائه السفلى ، حصل على وظيفة موزّع صحف يومية ، وبتوصية منها كذلك حصل

على دراجة هوائية قديمة ، يذرع بها الشوارع الفخمة وعمارات الشقق الفارهة بين الدارات الكبيرة والقصور المشيدة ، والمتاجر ذات البضاعة الثمنية التي لا يحلم يوماً باقتناء واحدة من معروضاتها الثمينة ، يدسّ الصحف في الصناديق المعدنية المخصصة لها بالقرب من أبواب حدائق الدارات والقصور وعمارات الشقق الفارهة ،ثم يولّي لا يلوي على شيء .

كان الأجر قليلاً ، وإن أدّى حاجاته الرئيسة ، وحال دونه ودون قرصات معدته وركلاتها جوعاً ، وفي ضوء هذا التقدّم الكبير الذي أحرزه لصالح معدته، فقد سمح لنفسه بأن يؤّملها بالحصول على سيارة نقل قديمة ينقل بها الصحف، بدل التقوّس خلف مقبضي الدراجة الهوائية التي قصفت صدره ، وأضنت قدميه في عذاب يومي متجدّد لا ينتهي ، مع أنّه كان يعلم أن أمنيته الصغيرة تبرق في البعيد دون وابل مطر ، فهو صبي الجرائد ، وسيبقى صبي الجرائد بعد أن كاد ينسى لقب زاجر المطر ؛فلا أحد يرغب في الفقراء المستضعفين ، لا سيما أصحاب الوجوه الكالحة، والقسمات الشاحبة ، والبنيات الضعيفة ، حتى النساء

الجميلات المترفات في ضواحي المدينة التي يذرعها ذهاباً وإياباً في فترات عمله كانت تزدريه ، وتضنّ عليه حتى بابتسامة يتيمة أو نظرة ازدراء إزاء كلمات إعجابه ومغازلته التي يمطرهّن بها ، فينزلق خجلاً في ثيابه إثر تجاهلهن له ، محتقراً نفسه ، ضارباً صفحاً عن كلّ التجاهل الذي مُنيت رجولته به ، إلا من لحظة انتعاش صادفها في عينيّ فتاة العرض التي نُصبت في واجهة متجر الثياب النسائية الذي أُفتتح منذ أيام ، وحضر افتتاحه وزير إحدى الوزارات ، والكثير من أصحاب السحن الممطوطة ، الذين يطالع صورهم في صفحات الصحف التي يوزّعها في كلّ صباح .

كان متجر الثياب ذا واجهات زجاجية ، وأرضية رخامية ، وباب دوّار كبير ،على عتبته حوضا رخام كبيران، زُرعت فيهما زهوراً ملونة لم يعرف مثلها في حيه الفقير ، حسبه أن يميّز بين زهور الجوري وزهور الياسمين، أمّا هي فكانت مصنوعة من اللدائن الصافية ، مسكوبة في قالب غاية في الدقة ، يداها وقدماها تتمثلان الليونة المتناسقة ، خصرها الأهيف يكاد يُهصر لدقته تحت

الأحزمة الملونة التي تتناوب على لبسها مع كلّ ثوب من أثواب الموضة التي تعرضها بتتابع يوافق آخر صرعاتها ، وأحدث تجديداتها ، شعرها أسود متموّج ، وأحياناً يكون أشقر مسترسل أو مهفهف ، يعتمد لونه على الشّعر المستعار الذي تغيره الموظفة المعنية بذلك وَفْقَ ما تعرضه من ثياب على فتاته البلاستيكية، التي تلزم مكانها في واجهة المتجر الزجاجية ، لا تفارقه أبداً ، إلا إذا حُملت بعيداً لكي تبدّل ملابسها وشعرها المستعار، ثم تعود إلى مكانها ملكة ساحرة متوّجة فيه ؛إذ إنّه لا يبالي بطبيعة الشعر أو بلونه،إنّما يبالي بعينيها الجميلتين ، فهي تملك أجمل عينين زجاجتين رآهما في حياته ،فيهما حبّ وعطف ورحمة لم يرها يوماً في عينيّ امرأة من بني البشر ، ولذلك عشقها ، عشق جسدها البلاستيكي ذا الأديم العسلي، عشق عينيها الساحرتين،وعشق قلبها الذي يدقّ بحبّه .

اعتاد أن يراقبها كلما مرّ أمامها صباحاً أو مساءً في نوبات عمله ، ثم استنّ سنة لزمها طوال الأيام ، فما ينتهي عمله حتى ينطلق إليها ، يركن دراجته بالقرب من المتجر ، ثم يجلس في مقعدٍ خشبي مواجه تماماً للواجهة التي تنصب

فيها محدّقة في البعيد ، يأكل شطيرته الأولى بعد يوم مضني،وهو يراقبها، ثم يتفرّغ لحديث طويل معها ، يحدّثها عن كلّ شيء ، عن فقره عن عجزه ، عن زجر الأمطار . تحدثه عن عالمها البلاستكي اللدن ، تُسرّ له بأحلامها وأمنياتها ، يهشّ إليها ، فتحنو عليه ، يتمنّاها ، فتحلم به ، تحدّثه عن عالمها ، فيعشقه ، ويتمنّى الولوج فيه ، يحدّثها عن عالمه ، فتكرهه ، وتتمنّى أن تنتشله منه ، ينتظمان عشقهما وأمنياتهما في قرار زواج ، كلّ الخلافات مسوّية ، كلّ الأمور مُتفق عليها ، لكن تبقى معضلة صغيرة ، توقفا عندها مجبرين ، فمن منهما سوف ينتقل إلى عالم آخر؟ بُهتا مفكرين في إجابة ، يطول الصمت لأيام ، يرسل إليها باقة زهور لعلّها تسعفها بقرار حكيم ، لكن موظفي المتجر يرفضون إيصالها إلى المرأة البلاستيكية التي يعشقها، ويتهمونه بالجنون ، فأنّى لرجل أن يعشق امرأة تمثال ؟! يصمّم على أن تصل الزهور إلى حبيبة قلبه ، لكنّه يُطرد كفأر صغير ، بعد أن يُهدد باستدعاء الشرطة له ، فيكتفي بأن يسجّي باقة الزهور خارج المتجر إلى جانب الواجهة الزجاجية التي تفصله عمن يحبّ . ابتسامة امرأته ، ونظرة عينيها الحانيتين اللتين توجهما نحوه على ما في ذلك من

خرق لجمود وصمت عالمها ، تخفّفان من حزنه ، ومن إشفاقه على زهوره التي داستها أقدام زبائن المتجر الذين لا يبالون بزهور تُسحق تحت أقدامهم في غمرة متابعتهم لأحدث ثياب الموضة المعروضة في الواجهة الزجاجية.

أحد الزبائن يحدّق أكثر مما يجب في جسد امرأته البلاستيكية ، غيرةٌ مجنونةٌ تجتاح كيانه ، فليس من العدل أن يقاسمه أحد رجال الدنيا في امرأته البلاستيكية ، الوحيدة التي عشقته ، في حين هجر كلّ نساء الدنيا.يغادر الرجل المكان ، ونار الغيرة لا تزال متأججة في روح زاجر المطر، تهمس الحبيبة له ببشرى ، وتؤمّله بقرب الفرج ، فقد وجدت حلاً نهائياً لمشكلتهما ، قررت أن تدعوه بعد تفكير طويل إلى الدخول إلى عالمها ، حيث الحبّ والسعادة ولا آلام أو حرمان ، فكرّ قليلاً، ووجد لقبه مانعاً دون الموافقة ، ولكنّها قالت بصوت رقيق محّمل بليونة البلاستيك"" وما المشكلة في ذلك ؟ فهناك أيضاً ستكون زاجر المطر ، بل إنّك ستجد هناك من التقدير والاحترام ما لم تجده في عالمك الراهن. "

" ولكنني زاجر المطر " ردّ قائلاً.ابتسمتْ ،وقالتْ بعد أن خطتْ خطوة إلى الأمام ، وألصقتْ فمها بالواجهة الزجاجية، وطبعت له قبلة على الحائط الزجـــــــاجي الذي يفصلهما : " وليكن ، فأنا أحبّك ، لقاؤنا غداً ". ثم ارتدّتْ إلى مكانها على عجل . إحدى المسنّات ترقب حركتها غير مصدّقة ما ترى، مشكّكة في عقلها ، ثم سرعان ما تخلع نظارتها ، وتطالعها، لعلّ خللاً فيها قد خيّل لها إنّ امرأة بلاستكية قادرة على الحركة وعلى الكلام وعلى التقبيل .

لم يمر بها صباحاً كعادته ، أجّل ذلك إلى حين يصفّي مسائل عالقة في هذا العالم ، وما أقلها من مسائل !!! تلخّصت في توديع أخوته وأخواته هاتفياً ، وسبّ زوجة عمه في رسالة تهكم طويلة أرسلها إليها مع فتى الفرن الذي يسكن بجوارهم ، ثم حرق كلّ كتبه القديمة ؛ إذ إنّه لا يعرف أحداً قد يرغب في قراءتها ، ثم تسليم الدراجة الهوائية للمؤسسة الصحفية التي يعمل فيها ، دون أن يسوّي معهم أمر راتبه ، فالشهر على أبواب نهايته ، وهو على كلّ حال لن يحتاج إلى المال في العالم الجديد الذي هو في صدد الدخول إليه ، فضلاً عن إنّه يريد أن يغادر هذا العالم

الذي أضناه حرماناً ، وهو يملك فيه ولو راتباً حقيراً لم يقبضه.

لبس أفضل ما عنده ، للدقة لبس كلّ ما عنده للمناسبات السعيدة ، وما أقلها من مناسبات !! كان لباساً قد ورثه عن أستاذه الفاضل ، هو لباس أقرب ما يكون إلى لباس مهرج يريد أن يبدو شريراً في حفل تنكري ، لباس له ياقة لامعة، وقبعة زرقاء . وقف أمام أمرأته التي بدا القلق والشحوب على وجنتيها البلاستكيتين، ابتسم لها ، فردّتْ ابتسامته بابتسامة،قال لها : " اشتقتُ إليكِ "

- "أنا أكثر اشتياقاً ... هل أنت مستعدّ ؟"
- "مستعد تماما ً ، ولكن ليس قبل أن أهبك مهراً لم تحصل امرأة على مثله من قبل ."

سألت بتحمّس : " ما هو؟"

أجاب بفخر وثقة:"سأهديك المطر."

ضرب بعصاه الأرض ، صمّ عينيه ، قرأ ترنيمة عجيبة، فعجّت السماء في لحظات بسحب سوداء ، ثم تكاثفت إلى حدّ أنّها حجبت نور الشمس ، وأغرقت المكان

في ظلامٍ دامس، ثم أرعدتْ وأبرقتْ ، بدأتْ شآبيب المطر في تفريغ حمولتها ، المطر المفاجئ داهم الكلّ ، وشلّ حركتهم ، في غمرة الانشغال في إيجاد ملجأ يقي من الامطار ، نظر زاجر المطر يمنة ويسرة ، عدّل من وضع ربطة عنقه ، ضغط بيديه على قبعته كي لا تُفقد في رحلة العبور المستحيلة، ثم انطلق مسرعاً نحو الواجهة الزجاجية، اخترقها بجسده ، كان الاختراق مؤلماً، لكنّها كانت هناك في انتظاره ، طيف من الألوان التي لم يعرف مثيلاً لها في عالمه تراقص في عينيه ، شعر بتراخٍ يدعوه للانسياح في حضن امرأته ، كان سعيداً؛ لأنّه زاجر مطر محظوظ بحبه، وقادرٌ على التنقل بين العوالم .

في المساء كانت المدينة غارقة في أمطار عجيبة اجتاحتها في غير موسمها ، فأفسدت كلّ شيء ، وأعاقت الحركة ، ومنعتْ الجميع إلا قلة من حضور جنازة زاجر المطر الذي مات إثر حالة جنون مفاجئة دفعته وَفْقَ تقرير الطبيب الشرعي إلى اختراق جدار زجاجي. كان على شفتيه ابتسامة غريبة ، لم يعنّ أحدُ المشيعين نفسه في فكّ سرّها؛ فلا أحد يبالي بابتسامة زاجر مطر مسكين !!!

الجسد

أقسم ألف مرّة في نفسه على أنّه لن يحنّ إلى أيّ جسد، ولن يتمنّى مخاصرة أيّ جسد، ولن يتحرّق شوقاً على دفء أيّ جسد، وهذا ما كان. على الأقل هذا ما يذكر أنّه قد كان. ولكنّه منذ زمن ليس بالهين ولا الرحيم يتلمس دبيباً خاصاً في خيوطه، يدعوه بلا رحمة لاكتتاف جسد ما، ينبض به بعزيف الوحدة، يغريه بدفء الألفة، منذ أنّ خاض غمار قراره المشهود وهو يحترف الحرمان، لكنّ خيوطه وأزراره باتت تلّح عليه بالنسيان،وتحرّضه على تجاوز قراره المشهود، وتؤنبه بجرم الهجران، والتجنّي على حقوقها.

كان بنطالاً كتانياً عتيداً ، خاض الكثيرمن المواقف الحاسمة في حياته حتى أنّه كان قد شارك في الحملات الانتخابية التي خاضها حزبه ضد حزب القبعات، لايذكر الآن اسم ذلك الحزب الذي كان ينتمي إليه ،ولكنّه متأكّد من أنّ مقر الحزب يقع في عمارة تطلّ على موقع سياحي وترفيهي مهم اسمه نادي الدفء الليلي، آلاف الامتحانات خاض في حياته ، لم

يعرف التنازل ، أتقن لغة الجسد ، هو بنطالٌ خاض المعركة تلو المعركة ، وعاد مهزوماً المرة أثر المرة ، ورضي كما يقولــون بالإياب غنيمة، ولكنّه يعتقد أحياناً أنّه لم يــؤب بالغنيمــة التــي يطيب له أن يظن أنّه آب بها، بل بقي عاشقاً مخضرماً للغــة الأجساد التي أرهقته وأضنته، وما استطاع للغزهــا فكــاً ، ولا لعمقها سبراً.

منذ أنّ أحبّ ذلك الجسد الذي هجره شعر بأنّ جنباته قد تفتّقتْ ،وأنّ لونه قد أصبح كالحاً ، أزراره تــدلّت، ولــم تعــد مشدودة موثقة في مكانها كما كانت ، عروته العليــا اهتــرأت ، وخصره بات متهدلاً مرتخياً ، ونسي تمامــاً الــشموخ ، وبــات يعيش على ذكرى ذلك الخصر الأهيف الذي لطالمــا حاصــره بكبرياء وإثارة. كان ذلك من سنوات طويلة ، لكنّــه حتــى الآن لازال يتعشّق رائحة عرق الجسد الذي لطالمــا حــضنه حــدّ الالتصاق ، ورافقه في كلّ مكان ، وكان كلمــا فارقــه لــيلاً ؛ ليستلقي قريباً منه ، يقطع ليله في الانتظار والشهوة . قدّم له كلّ شيء حتى عندما أبلغه الجسد برغبته في أن يجدّد نفسه ، لــم يبخل عليه بذلك ، وقام بصبغ نفسه ، وتقصير طوله ليبدو أكثــر

عصرية ، وأكثر قدرة على تتبّع آخر صرعات الموضـــة التـــي يمقتها.

ولكن كلّ ذلك تمخضّ عن لا شيء ،وفي النهاية هجـــره الجسد إلى بنطال آخر ، يومها أقسم على أنّـــه لـــن يعـــشق أيّ جسد، ولن يعطف على أيْ عارٍ ، وسيحبس نفسه وفضوله على نفسه ولا غير ، لكنّ روحه تتوسّل إليه في سبيل الحصول على جسد، تبحث عن وعاء يحتويها وتكونه.

قررّ أن يطفيء بعضاً من أشـــواقه فقـــط بـــالتبرّد دون الشرب ، خرج من بيته مسكوراً بمطلبه، كان الجو قائضاً، قصد سوق المدينة حيـــث تحتـــشد واجهـــات المحـــلات بالأجـــساد المعروضة للبيع ، الملابس الصغيرة والكبيرة تملأ الـــشوارع ، عجب كيف تسمح الملابس لأبنائها الصغار باللعب في الـــشارع في مثل هذا الجو ؟ أحد القمـــصان الـــصغيرة كـــادت إحـــدى الحافلات المسرعة أنّ تجعّده تحت عجلاتها الكبيرة.

سريعاً وصل إلى السوق ،أسرع ممـــا توقـــع، وقـــف حائراً أمام واجهة المتجر الأول ،كانـــت الأجـــساد المعروضـــة

متعرّقة، وتكاد تتقدّد من الحرّ ، لم تغريه أبداً بالنظر إليها ،كـــاد يشفق عليها ،ولكنّه منع نفسه من أيّ بادرة شفقة،وذكّر نفسه أنّه لم يأتِ إلى السوق كي يوزّع مشاعر مجانية، ألحّ عليه المعطف صاحب المتجركي يدخل إلى صالة العرض،ولكنّه نظـــر إليـــه بتقزّز، وضرب صفحاً عن دعوته المشبوهة.

كثيرٌ من المتاجر تعلن عن خصومات موســـمية كبيـــرة على الأجساد لا سيما الكبيرة منها ، تساءل أيّ موسم يقصدون؟ أيقصدون موسم رخص الأجساد ؟ أم موسم التزاوج ؟ أم موسم الحرّ ؟ هو لا يدري ، هزّ جيبه الأعلى ،وقال بـــصوت غيـــر مبالٍ قدّر أنّ بعض المارة قد سمعوه:"ومن يبالي؟"

على الأرصفة انتشرت بسطات العرض ، كانت الأجساد متناثرة عليها بلا نظام ، أجساد ملونة ، أجساد موشومة ، أجساد مشعوعرة ، أخرى حلساء ملساء ، أجساد بكلّ الأحجام ، نخـــب أول ، وثانٍ وثالث ، وبعضها معيب بحرق أو كسر أو خلع ؛لذا يُعلن عن تخفيضات إضافية عليه.

بحث طويلاً عن جسد كي يطفيء احتراقه ، جسد يشعر بأنّه انتظره آلالف السنين ، جسد لا يُعرض ولا يُزاود عليه ، لا تتلّمسه كلّ الملابس ، تزدريه بعضها ، ويزاود عليه بعضها الآخر ، أرعبته النخاسة التي يراها في كلّ مكان. حمد الله ؛لأنه خُلق بنطالاً ذا احترامٍ وتقديرٍ ، ولم يُخلق جسداً يُباع،ويشتري،وينزل سوق النخاسة في أيّ لحظة ، ولا يجد أحداً يرثي لمصيره المشؤوم.

كم تمنّى أن تحظى الأجساد الملعونة بنفسها بشيءٍ من الاحترام !!! وأنّ تُصان كينونتها ، ويُعلى من شأن وجودها . فكّر بأنّ ثورة جادة ستردّ للأجساد احترامها المهدور،وقد ترتقي بها إلى مصافي الملابس المحترمة، عندها قد تعود ثقته الضائعة بالأجساد ، ويفتح خيوطه من جديد لاستقبال جسد ما ، أمّا الآن ،فهو لا يعرف شيئاً عن الآن سوى أنّه يحمل في جنباته شعوراً يتمزّق بين القرف والرثاء.

يبتعد عن سوق الأجساد، يمّم نحو إحدى الأزقة التي تدلف إلى الغابة التي تحيط بالمدينة ، أحد القمصان يلّح عليه لشراء أحد الأجساد التي يحملها ، يقيس إحداها على البنطال

المأخوذ بآلامه ، يؤكّد القميص أنّ الجسد يناسب مقاس البنطال ، يعرض عليه أن يشتري جسدين بسعر جسدٍ واحد ،بل يستطيع أن يحصل على ثلاثة منها بسعر واحد.

يشعر البنطال بأنّ قرفه قد تضاعف ، يشيح بنظراته عن القميص الذي ما زال يثرثر .يبتعد ليحلم بجسد لا يشتريه من سوق النخاسة،ولايأخذه بضربة حظّ، بل غاية أمنياته الحصول على جسدٍ يخلو من الدنس،لم يعرض في الأسواق،لم تبتذله الأيدي،ولم تشبع منه النظرات ، جسد يخلص ويخلص ...، ويطوّقه بسعادة إلى الأبد بعيداً عن سوق الأجساد.
وحتى ذلك الوقت سيعيش في حنين موصول إلى الجسد الذي لم يقابله بعد.
ومن جديد عاد يحترف الانتظار...

عنوان المؤلفة

الأردن – عمان – ١١٩٤٢

ص.ب ١٣١٨٦

البريد الالكتروني :

Selenapollo@hotmail.com